وِلادةُ الابتِسامةِ

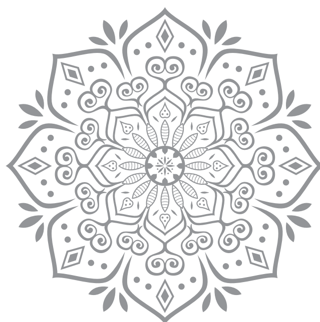
فِي أَيَّامِ وَفَاتِهِ ٱلْحَزِينَةِ ٱلْمُظْلِمَةِ ٱلْأَلِيمَةِ
أَشْرَقَتْ عَلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلْخَلَائِقِ ٱبْتِسَامَتُهُ ٱلْعَظِيمَةُ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



تأليف

توفيق بن خلف الرّفاعي



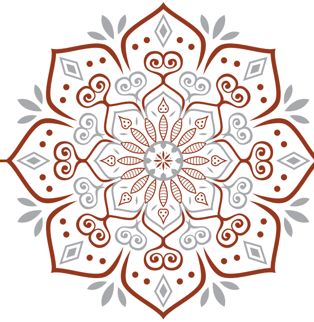
وِلادةُ الإبتسامة

اسم الكتاب: ولادة الابتسامة.

المؤلـــــف: توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي.

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



الصف والتصميم والإخراج:



حولي - شارع المثنى - مجمع البدري
الدور الأرضي - محل ٢٩
هاتف: ٩٦٥٦٠٠٨٢٧٠٤ +

وِلَادَةُ الِابْتِسَامَةِ



فِي أَيَّامِ وَفَاتِهِ ٱلْحَزِينَةِ ٱلْمُظْلِمَةِ ٱلْأَلِيمَةِ
أَشْرَقَتْ عَلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلْخَلَائِقِ ٱبْتِسَامَتُهُ ٱلْعَظِيمَةُ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تأليف

توفيق بن خلف الرّفاعي




بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْـمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْـمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»(١).



(١) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، وأخرجه ابن حبان (٤٧٤) و (٥٢٩) من طريق النضر ابن محمد، بهذا الإسناد. وقد جاء بعضه ضمن حديث من طرق عن أبي ذر عند أحمد (٢١٣٦٣) و (٢١٤٧٣) و (٢١٤٨٤)، ومسلم (١٠٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٧)، وابن حبان (٣٣٧٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، والطبراني في الأوسط (٤٨٤٠)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٧٢): حسن لغيره.



مقدمة ولادة الابتسامة



غروب الابتسامة.. إلى متى؟!

من غربة الابتسامة: أن يقول قائل مستغربًا مستنكرًا: أتستحق الابتسامة مبحثًا بأكمله؟!

ومن غربتها: أن يَحْقِرَها البعض ويُحجِّرها ويُقزِّمها حتى لكأنها مجرد انكشاف أسنان منفصلة عن الجسد الواحد التي تمثِّل هي الجزء المنير منه إذا هي أشرقت، وهي أبلغ لغة وأصدق تعبير، إذا هي تلألأت، والنبي ﷺ يقول: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[1]، ولأنْ يتداعى الجسد بعضه لبعضٍ بالسعادة والبِشْر والسرور أحب وأجمل وأولى... وذروة ذلك وكماله في الابتسامة، فالابتسامة هي ردة فعل الجسد كله في صورتها، وهي انطباع موقف القلب على أطهر صفحة وأعلاها وأجلاها، وهي وجه صاحبها.

ومن غربة الابتسامة: أن لا يشعر الناس بغربتها بينهم حتى لكأن الحياة تطيب بدونها، أو كأنهم يملكون البديل عنها، أو كأن الحياة تميع بها!

ومن غربة الابتسامة: أن لا يفقه الناس أسرارها، ولا يدركون مخزون خيراتها، وقد ألفوا الحياة بجفافها، وتكيفوا مع قسوتها حتى طحنتهم خصوماتهم ومشكلاتهم، وما عادوا يشعرون بالحاجة لشيوع الابتسامة فضلًا عن أن يشعروا بغربتها...! وربما كان يكفيهم لدرء الكثير الكثير من سلبيات الحياة وسخطها وآثارها السيئة المفرقة... ابتسامة.

وما هذا البحث إلا قصة ولادة الابتسامة.. وحكمها وحكمتها.. وقصة إشراقتها.. وقصة غروبها اليوم... وإلى متى ستستكين الابتسامة للغروب.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).





الفصل الأول:

أنوار الابتسامة على الظاهر والباطن



الابتسامة الأولى: النور على الوجه:

نعم إن الابتسامة في الوجه.. لأن الابتسامة لسان الصدق للأخلاق الطَّيِّبة، وصبغة الشخصية كلها إذ جعلها الله بحكمته إشراقة على وجه صاحبها؛ ولهذا فقد ورد في الحديث في وصف سرور النبي ﷺ من وصف وجهه الشريف:

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ»[(١)] ... الحديث، فلما تاب الله عليه وجاء إلى رسول الله ﷺ.. فأعظم ما اجتذب قَلْبَ أُبَيٍّ ما شاهد عليه وجه رسول الله ﷺ.. فماذا قال: «فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ فَقَالَ: «**لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ»[(٢)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا نَظَرَ آنِفًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[(٣)].

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **كَانَ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ أَوْ بُشِّرَ بِهِ، خَرَّ**

(١) رواه البخاري – الفتح ٧ (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.
(٢) رواه البخاري – الفتح ٧ (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.
(٣) رواه البخاري – الفتح ١٢ (٦٧٧٠) واللفظ له، ومسلم (١٤٥٩).

سَاجِدًا، شُكْرًا لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[(١)].

إن الابتسامة [صدقة].. أي إنها نوع من أنواع العطاء.. العطاء الحقيقي.. وأين لنا مثل هذا النوع من العطاء؛ عطاء منبعث من قلب صاحبه، عطاء تتحشد له مشاعر الخير الإيجابية، عطاء من أعماق نفسٍ طيبة مطمئنة فاض طيبها وحبها حتى أصبح الوجه كُلُّه يدًا ممتدة بالصدقة للنفوس الأخرى، وهنا يقول المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[(٢)]، فإن الأصل أن الابتسامة في وجهك وصدرت من وجهك أنت أيها المبتسم.. إلا أنها عاد مفعولها إليك راحةً تبسم لنفسيتك، وعادت إليك بأجر الصدقة، ومن ثم فإن الصورة العظيمة - في الحديث - هي أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل وجه أخيك كأنه المرآة لك.. فلا صورة أبلغ من هذه الصورة.. كيف وهو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «الْـمُؤْمِنُ مَرْآةُ أَخِيهِ»[(٣)].. ولهذا عادت ابتسامتك إليك من فورها كما تعود إليك صورتك وأنت تنظر في المرآة في لحظتها.

الابتسامة الثانية: صحة للقلب... وشخصية مقدامة:

يقرأ الإنسان من خلال الابتسامة صحة قلب صاحبها قبل أن يقرأ صفحة وجهه، حيث يقرأ من هذه الابتسامة بشرى موعودة... بشهادة منظورة ورسالة موجودة.. فلقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتفاءل بالأسماء، فكيف بالوجوه الباسمة النضرة التي

---

(١) رواه ابن ماجة (١٣٩٤) واللفظ له، والترمذي (١٥٧٨) وقال: هذا حديث حسن غريب. وروره أبو داود (٢٧٧٤)، وحسنه الألباني، وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه (١/ ١٥١): ولابنِ ماجَةَ نحوهُ عن أنس، وفي سندهِ ضعفٌ، واضطرابٌ، ولكن لهذا المعنى شواهدُ كَثيرةٌ.

(٢) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، وأخرجه ابن حبان (٤٧٤) و (٥٢٩) من طريق النضر ابن محمد، بهذا الإسناد. وقد جاء بعضه ضمن حديث من طرق عن أبي ذر عند أحمد (٢١٣٦٣) و (٢١٤٧٣) و (٢١٤٨٤)، ومسلم (١٠٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٧)، وابن حبان (٣٣٧٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، والطبراني في الأوسط (٤٨٤٠)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٧٢): حسن لغيره.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ص (١٢٥) رقم (٢٣٨)، وحسنه الألباني.

غدت وجوهًا بابتسامتها منورة.. وهل جزاؤها في الآخرة.. إلا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣،٢٢].

أليس قوله ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ**» إشارةً لعلاقة بين اثنين.. وأن مَن قدَّم الابتسامة فقد تقدَّم فعليًّا خطوة على وجه مُقَابِلِهِ.. خطوة ولو كانت ابتسامة.. ولو بقيت ابتسامة.. فإنها نقطة نور في صفحة... بل نقطة نور تشرق بها الصفحة.. أو يشرق بها اليوم كله... ويشرق بها عنوان هذا المبتسم ورمزه.

والتقدم عادة لا يكون إلا من الواثق من نفسه.. المتحكم في عواطفه.. السوي في أخلاقياته... فإنها كما سماها النبي ﷺ «**صَدَقَةٌ**».. ولا يتصدق إلا المليء، أو لا يتصدق إلا الواجد الباذل... ومن شرف هذه الصدقة أنها من الأعلى إلى الأعلى مباشرة؛ أي من الوجه إلى الوجه مباشرة.. وهل أشرف في الإنسان من وجهه؟! «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»(١).

فإن الابتسامة صورة لصحة نفسية من شخصية مقدامة في ذاتها حكيمة لها ولغيرها.. شخصية قوية.. تسكن إليها نفس مَن يقابلها عند اضطرابها، وتبخِّر هموم النفس المهمومة عند اشتداد همومها، وتزيل وساوس الشيطان عند ازدحامها.. وتريه البشارة حقيقة قريبة.. كأنها تقول له: هوِّن عليك يا أخي فعندنا رب كريم، واسع سبحانه عليم.. لا يريد لنا ولا بنا إلا خيرًا إنه الرحمن.. فما لك أيها الإنسان والله يقول في أصعب موقف؛ موقف ذهاب رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك:٢٩،٢٨]، هو يجير

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، وأخرجه ابن حبان (٤٧٤) و (٥٢٩) من طريق النضر ابن محمد، بهذا الإسناد. وقد جاء بعضه ضمن حديث من طرق عن أبي ذر عند أحمد (٢١٣٦٣) و (٢١٤٧٣) و (٢١٤٨٤)، ومسلم (١٠٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٧)، وابن حبان (٣٣٧٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩١)، والطبراني في الأوسط (٤٨٤٠)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٧٢): حسن لغيره.

الكافرين من عذاب أليم، وسوف يجيرهم منه قبل أن يموتوا كافرين.. فيدخلهم في دين الله أجمعين.. يومًا قريبًا قادمًا.. ووعدًا صادقًا من رب العالمين وهو أرحم الراحمين.. وبلاغًا من سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. فما لك يا أخي وأنت المسلم.. فكيف لا يجيرك وأنت المؤمن بالقضاء والقدر.. فابتسم لقدرك القادم، وابتسم في وجه موعودك وسعدك... واكشف قتر وساوس الشيطان عن وجهك، واطردها من صدرك.. وكلُّك حُسْنُ ظنٍّ بقضائك وقدرك أيًّا كان ما دام هو من ربك.

ألست أنت مَن تبايع ربك على الرضا بكل أقداره وأنواعها وأشكالها في ابتداء صباح كل صباح.. وفي ابتداء مساء كل ليلة، وتؤكد ثلاثًا في كل مرة؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»(١).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: لَا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»(٢).

وسوف أورد الآن هنا مواقف متنوعة واجهت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. فتأمل عظمة شخصيته، وكيف عالج المواقف بالابتسامة ووجه الرضى المشرق، وأن الابتسامة ما أنقصت من مهابته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. بل كانت الابتسامة هي الحكمة البالغة.. وكان قراره الحكيم السعيد كابتسامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اتجاهٍ واحد.



(١) رواه أبو داود (١٥٢٩)، والحاكم (١٩٠٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَلَكْتُ؛ وَقَعْتُ عَلَى أَهْلِي فِي رَمَضَانَ، قَالَ: «**أَعْتِقْ رَقَبَةً**»، قَالَ: لَيْسَ لِي، قَالَ: «**فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «**فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا**»، قَالَ: لَا أَجِدُ، فَأُتِيَ بِعَرَقٍ[(١)] فِيهِ تَمْرٌ، فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟ تَصَدَّقْ بِهَا**»، قَالَ: عَلَى أَفْقَرَ مِنِّي، وَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا[(٢)] أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنَّا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: «**فَأَنْتُمْ إِذًا**»[(٣)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ». يَعْنِي: قَوْلَهُ[(٤)].

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ: «**عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ**»، فَقَالَ: أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِنَّ فَقَالَ: يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ، أَتَهَبْنَنِي وَلَمْ تَهَبْنَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَ: إِنَّكَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**»[(٥)].

---

(١) الْعَرَقُ: الْمِكْتَلُ، ويقال إنه يسع خمسة عشر صاعًا، والصاع خمسة أرطال وثلث، كما هو رأي الشافعي، أو ثمانية كما هو قول أبي حنيفة.
(٢) لابتيها: اللابة: الأرض ذات الحجارة السود.
(٣) رواه البخاري (٦٠٨٧)، ومسلم (١١١١).
(٤) رواه البخاري (٣٩٥٢).
(٥) رواه البخاري (٦٠٨٥).

الابتسامة الثالثة: صناعة الفأل الحسن:

لقد علَّمنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفأل الحسن، وعلَّمنا كيف نتفاءل من الله بكل قادم حتى لو كانت المعطيات على غير ذلك، كما علَّمنا الإيمان بالله، وأن الأمر ليس إلا لله، وعلَّمنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حياته أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخيِّب ظنه مرة واحدة، وأنه في كل مرة كان حسن الظن بالله يتفاءل فألًا حسنًا ولم يكن عنده علم بالغيب بهذا، لكن كفاه أنه سبحانه يعلم.. «**وَكَانَ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ**»[١]، وقد كان تفاؤله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم الأمور وفي أصغرها، وكانت نتيجة تفاؤله المعتادة إنما هي ابتسامته المباركة المنيرة.

عَنْ سَهْلِ ابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ، حَتَّى كَانَتْ عَشِيَّةً فَحَضَرْتُ الصَّلَاةَ، عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ، وَنَعَمِهِمْ، وَشَائِهِمْ، اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «**تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»، ثُمَّ، قَالَ: «**مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟**»، قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَارْكَبْ**»، فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ**[٢] **حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ، وَلَا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ**[٣]»، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مُصَلَّاهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَحْسَسْنَاهُ فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ[٤]، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي، وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَبْشِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ**»، فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى خِلَالِ الشَّجَرِ فِي الشِّعْبِ،

---

(١) رواه أحمد (٢٤٩٨٢)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.
(٢) الشعب: الطريق بالجبل وجمعه شِعاب.
(٣) لا نُغَرَّنَّ من قِبلك الليلة: أي لا نُؤخذ على غِرَّة من الناحية التي أنت بها.
(٤) ثوّب بالصّلاة: أي أقيمت الصلاة.



فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى هَذَا الشِّعْبِ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ اطَّلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كِلَيْهِمَا فَنَظَرْتُ، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ؟**» قَالَ: لَا، إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيًا حَاجَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ أَوْجَبْتَ**[١] **فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا**»[٢].

وما أحوج الجند إلى ثقة القائد بربه، وإلى قائد متفائل بالله، متيقن بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!

عَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنِ اسْمِهِ، فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنِ اسْمِهَا فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا فَرِحَ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهَا رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ»[٣].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالطَّائِفِ قَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا نَبْرَحُ أَوْ نَفْتَحَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ**». قَالَ: فَغَدَوْا فَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا وَكَثُرَ فِيهِمُ الْجِرَاحَاتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**». قَالَ: فَسَكَتُوا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٤].

أي عظمة مثل عظمة هذه الشخصية.. أي اتزان، وأي حكمة، وأي ثبات، وأي تربية!

الابتسامة الرابعة: الابتسامة والسلام؛ في وجه مَن تعرف ومَن لا تعرف:

الابتسامة التي تحملها هي إشراقة ملازمة في العادة للسلام، في وجه مَن تعرف ومَن لا تعرف، فليس مقصود السلام هو إلقاء أحرف مجردة، بل هو معانٍ عظيمة.. يعجز المرء عن حدها وعدِّها.. فكيف وقد توجت تلك المعاني بوجهٍ مقبل، من ورائه

(١) أوجبت: أي لنفسك الجنة.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٠١)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٣٩٢٠)، وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري (٦٠٨٦).

قلبٌ منفتح على كل مَن يلاقيه وجهًا لوجه في طريق.. وقد جمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك في قوله: «عَلَيْكَ بِاتِّقَاءِ اللهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَتُكَلِّمَ أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ وَلَا يُحِبُّهَا اللهُ تعالى، وَإِنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ، فَلَا تُعَيِّرْهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ فيه، دَعْهُ يَكُن وَبَالُهُ عَلَيْهِ، وَأَجْرُهُ لَكَ، وَلَا تَسُبَّنَّ شَيْئًا»[(١)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ لَا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِن لِيَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[(٢)].

فالحذر الحذر من أن نقيِّد الابتسامة في وجه أناسٍ محددين، أو نجعلها في وجوه من هم عندنا من المعروفين أو الأقربين، أو لمن تجمعنا بهم مصلحة أو نخصصها لمن هم من العالين.. فلا يليق بالابتسامة إلا الشيوع والإشاعة، كما أن النور لا يليق به الكتمان، ولا الاختباء خلف الظلمة من وراء الجدران، إنما هي للناس أجمعين؛ فمنهم مَن تكون ابتسامتك له فألًا حسنًا، ومنهم من له قوة، ومنهم من تكون ابتسامتك له تأديبًا وتعليمًا وتزكية، ومنهم مَن تكون ابتسامتك له مفتاحُ خيرٍ مغلاق شر.. كل هذا وغير هذا كثير من آثار الابتسامة الخيِّرة على نفوس مَن تقابل وعلى حياتهم، وعلى إصلاح إشكالاتهم، وعلى إطفاء خصوماتهم وأنت لا تدري، وما اعتاد الناس أن يبحثوا عن آثار ابتساماتهم كما يبحثون عن آثار صدقاتهم.. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٧٠]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

الابتسامة الخامسة: الابتسامة من سماحة هذا الدين:

إن الابتسامة في الإسلام ليست وليدة حدَثٍ مضحك، أو حديثٍ يُضحك، ولا هي فعلٌ طارئٌ، ولا ردة فعل، ولا هي تَفَضُّل، ولا إحسان شخصي ولا مزاجي، بل

(١) رواه ابن حبان (٨٩٦)، وصححه الألباني.
(٢) رواه الحاكم (٤٣٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٣) رقم (٢٦٦١): رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن جيد.



الابتسامة من سماحة الوجه، وسماحة وجه المسلم من سماحة هذا الدين وصبغة الله الملازمة لأوليائه المتقين، وللهداة المهديين.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «**الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»[(١)].

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَلَّى الْغَدَاةَ، ثُمَّ جَلَسَ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الضُّحَى ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ مَكَانَهُ حَتَّى صَلَّى الْأُولَى وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَتَكَلَّمُ، حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ النَّاسُ لِأَبِي بَكْرٍ: أَلَا تَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَأْنُهُ؟ صَنَعَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ يَصْنَعْهُ قَطُّ، قَالَ: فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «**نَعَمْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَأَمْرِ الْآخِرَةِ**»، وذكر قصة الشفاعة العظيمة إلى أن قال: «**فَإِذَا فَعَلَتِ الشُّهَدَاءُ ذَلِكَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَدْخِلُوا جَنَّتِي مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ. قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا فِي النَّارِ: هَلْ تَلْقَوْنَ مِنْ أَحَدٍ عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ؟ قَالَ: فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلًا، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامِحُ النَّاسَ فِي الْبَيْعِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَسْمِحُوا لِعَبْدِي كَإِسْمَاحِهِ إِلَى عَبِيدِي، ثُمَّ يُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ رَجُلًا فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ وَلَدِي: إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي بِالنَّارِ، ثُمَّ اطْحَنُونِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ، فَاذْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ، فَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ مَخَافَتِكَ، قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرْ إِلَى مُلْكِ أَعْظَمِ مَلِكٍ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهُ وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ، قَالَ: فَيَقُولُ: لِمَ تَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ قَالَ: وَذَاكَ الَّذِي ضَحِكْتُ مِنْهُ مِنَ الضُّحَى**»[(٢)].

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَقْرَأَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ**

(١) رواه أحمد (٢١٠٧)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.
(٢) رواه أحمد (١٥)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ لا اليَهُودِيَّةُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «أَنَّ رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْمَقْبَرَةَ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟** قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا**»(٢).

فأي مظهر فرح أظهر من هذا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى القادمين عليه في هذا الموقف الأعظم.. وأي مظهر سرور لا يوصف حين توصف الجموع القادمة في ذلك اليوم البهيم بالخيل المقبلة؛ الغرة مشرقة في وجه الخيل كالابتسامة المشرقة وأجمل، والحجل نور في الرِّجْل يضيء الطريق القادم... كيف ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يظهر بهاءها حين يقارنها بضدِّها لتتضح المقارنة فيقول: «**بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**» وهذا نور قد غرسوه في الدنيا، وأشرق لهم في الدنيا على قدرها، ويشرق لهم اليوم حقيقة ظاهرة للعالمين.. ونورًا مضيئًا يراه كل ذي عينين.. فالحمد لله رب العالمين.

فدين الإسلام هو أحب الأديان إلى الله وهو الحنيفية السمحة.. فإذا كان هكذا دين الإسلام فكيف لا يكون وجه المسلم سمحًا.. وكيف لا يكون خلقه السماحة، وكيف لا يكون تعامله السماحة، ثم كيف لا تظهر سماحة الإسلام على وجوه المسلمين فتكون وجوههم سمحة من بين وجوه الأمم كلها... إذًا فالابتسامة نقطة نور أساسية في سماوات أنوار وآثار شريعة الله لا تنفصل عنها ولا غنى عنها. وهذه



(١) فوائد أبي عمر بن منده بواسطة رفع الحرج لصالح بن حميد (١٥٨) وقال: سنده صحيح.
(٢) رواه مسلم (٢٤٩).

السماحة لا يمكن أن تجتمع مع العبوس ومع الحزن والهم والغم والكآبة.. بل هذه أحوال مكروهة، ولا ينبغي أن تستقر، ولذا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاستعاذة بالله منها، وسيأتي هذا معنا – بإذن الله – وإنما الذي يعنينا هنا أن السماحة ليست شريعة مطوية في الكتب، بل السماحة منشورة على الخلْق في الخُلُق، منشورة على التصرفات في جميع جنبات الحياة، وقبل ذلك فإن سماحة الإسلام في العلم، وسماحته في الإفتاء، وسماحته في الأحكام، وسماحته في التربية، وسماحته في التزكية.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْمَحْ، يُسْمَحْ لَكَ**»[(١)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ، قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا**»[(٢)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا، سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى**»[(٣)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «نُزُولُ الْأَبْطَحِ لَيْسَ بِسُنَّةٍ، إِنَّمَا نَزَلَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَسْمَحَ[(٤)] لِخُرُوجِهِ إِذَا خَرَجَ»[(٥)].

فحتى في اختيار طريقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يختار الوعر من الطرق أو الأصعب، إنما خياره الطريق الأسهل والأسمح، فهو الأحب إلى قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شيء، وهذا مبدؤه ومنهج حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ**»[(٦)].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٢)، وقال الأرنؤوط: صحيح.
(٢) رواه أحمد (٦٩٦٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.
(٣) رواه البخاري (٢٠٧٦).
(٤) أسمح لخروجه: أي أسهل لخروجه راجعا إلى المدينة.
(٥) رواه البخاري - الفتح ٣ (١٧٦٥)، ومسلم (١٣١١) واللفظ له.
(٦) رواه الترمذي (٢٤٨٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال محقق جامع الأصول (١١/ ٦٩٨): حديث حسن.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا إِلَيْهِ، فَسَبَقَ أَعْرَابِيٌّ أَصْحَابَهُ، فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ، فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ. قَالَ: فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا، فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ، فَانْتَزَعَ قِبَاضَ الْمَاءِ، فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً، فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَغَضِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون:٧]، يَعْنِي الْأَعْرَابَ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَأْتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ، فَلْيَأْكُلْ هُوَ، وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨٧] قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رِدْفُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَلَفَ وَجَحَدَ قَالَ: فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبَنِي، قَالَ: فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ، فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبَكَ وَالْمُسْلِمُونَ، قَالَ: فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ، قَالَ: **فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا، إِلَّا أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: أَبْشِرْ،** ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ»(١).

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَانَ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ أَوْ بُشِّرَ بِهِ، خَرَّ سَاجِدًا، شُكْرًا لِلهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(٢).

(١) رواه الترمذي (٣٣١٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٢) رواه ابن ماجة (١٣٩٤) واللفظ له، والترمذي (١٥٧٨) وقال: هذا حديث حسن غريب. ورواه أبو داود (٢٧٧٤)، وحسنه الألباني.



فإن التجاوب مع البشارة والمسرَّة إنما جاء بأرقى تجاوب وأقرب حال متقرب.. إن فيه إعلان الفرح والسرور لله بجنس المسرة التي يحبها الله.. وهل من شيء هنا مثل رفع الشكر لله من مقام السجود لله.. والله يفرح بما يفرح به عباده.. بل هو مَن يسوق لهم ما يفرحهم، وهو القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، والفرح بفضل الله ورحمته يزيد من فضله ورحمته، والسرور بذلك يزيد السرور سرورًا، وربنا يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وهذا التناسق والتناغم ما بين سماحة الدين وسماحة الوجه وطلاقته، وبين الأعمال والأخلاق الإسلامية يدل على أن سماحة الإسلام هي فطرية وحقيقية، كما أنها مظهر عبادة لازم وملازم للمسلم، وهذا يدل على أن هذا الدين من عند الله.. وهذا هو ما جعل أكثر الأمم تدخل الإسلام أفواجًا..وما يزال الناس حتى يومنا هذا ينجذبون للإسلام انجذابًا وحيدًا فريدًا رغم شدة التشويه والحرب على هذا الدين، ولذا فإن سرًّا من أسرار ثبات هذا الدين في العالمين هو الخُلُق الحسن، كما كان الخُلُق الحسن من أعظم أسرار انتشار هذا الدين في العالمين.. وأول مظاهر الخلق الحسن ومطلعه هو الابتسامة على وجه المسلم منذ مطلعه ومَقْدِمه على أي قوم.. **لذا فإن الابتسامة سرٌّ من أسرار بقاء هذا الدين وثباته،** فمَن ذا الذي لا يعظم أمر أمة محمد ﷺ وهو يرى المصائب التي تذيب صبر الناس وثباتهم تصب عليها صبًّا، وتزيل المبادئ وتزحزح الأمم، فإذا بأمة محمد ﷺ وقد استقبلتها بابتسامة وثبات، وصِبْغَتُها الرضا، وخُلُقها الرضا، لأن معتقدها السادس في الإسلام هو الإيمان بقضاء الله وقدره خيره وشره، حلوه ومره، وتأتي الابتسامة شهادة ظاهرة على الرضا عن الشدائد، بل كم رأينا في هذه الأمة العظيمة مَن يستقبل الموت بابتسامة الرضا عن الله!

وهكذا كان ميل النبي ﷺ إلى السماحة حتى في اختيارات الأشياء،

والميل إلى الأسماء السهلة السمحة سواءٌ كانوا أشخاصًا أو قرى أو ما إلى ذلك.. كما مرَّ معنا في حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنِ اسْمِهِ، فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنِ اسْمِهَا فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا فَرِحَ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهَا رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ»[(١)].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ سَمْحُ الْبَيْعِ، سَمْحُ الشِّرَاءِ، سَمْحُ الْقَضَاءِ، سَمْحُ الِاقْتِضَاءِ»[(٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ، قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا»[(٣)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا، سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»[(٤)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ»[(٥)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ[(٦)] **وَالرَّوْحَةِ**[(٧)]**، وَشَيْءٍ**

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٢٠) واللفظ له، وقال محقق جامع الأصول (٧/ ٦٢٨): إسناده صحيح.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٥٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧٥) رقم (٦٣١٣): رجاله ثقات.

(٣) رواه أحمد (٦٩٦٣)،و قال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٤) رواه البخاري (٢٠٧٦).

(٥) رواه الترمذي (٢٤٨٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال محقق جامع الأصول (١١/ ٦٩٨): حديث حسن.

(٦) الغدوة: السير أول النهار.

(٧) الروحة: السير بعد الزوال.



مِنَ الدُّلْجَةِ[1]»[2].

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غَفَرَ اللهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ كَانَ سَهْلًا إِذَا بَاعَ، سَهْلًا إِذَا اشْتَرَى، سَهْلًا إِذَا اقْتَضَى**»[3].

عَنْ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اسْتَسْلَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَجُلٍ بَكْرًا، فَجَاءَتْهُ إِبِلٌ مِنَ الصَّدَقَةِ، قَالَ أَبُو رَافِعٍ: فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَقْضِيَ الرَّجُلَ بَكْرَهُ، فَقُلْتُ: لَا أَجِدُ فِي الْإِبِلِ إِلَّا جَمَلًا خِيَارًا رَبَاعِيًا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعْطِهِ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خِيَارَ النَّاسِ أَحْسَنُهُمْ قَضَاءً**»[4].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِنٌّ مِنَ الْإِبِلِ، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعْطُوهُ**»، فَطَلَبُوا سِنَّهُ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ إِلَّا سِنًّا فَوْقَهَا، فَقَالَ: أَعْطُوهُ، فَقَالَ: أَوْفَيْتَنِي وَفَى اللهُ بِكَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً**»[5].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ**»[6].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا، أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[7].

---

(١) الدّلجة: السير آخر الليل.
(٢) رواه البخاري - الفتح ١ (٣٩).
(٣) رواه الترمذي (١٣٢٠) واللفظ له، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وابن ماجه (١٢٠٣)، وأخرجه البخاري في البيوع حديث رقم ٤ (٢٠٧٦).
(٤) رواه الترمذي (١٣١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٥) رواه البخاري - الفتح ٥ (٢٣٩٣).
(٦) أبو داود (٤٣٧٥) وهذا لفظه، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٢٧): صحيح، وهو في الصحيحة رقم (٦٣٨)، وصحيح الجامع (١١٨٥)، وفي المسند (٦/ ١٨٦)، وقال محقق جامع الأصول (٣/ ٦٠٤): له شواهد ترقيه إلى الحسن.
(٧) رواه أبو داود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩) واللفظ له، وقال محقق منتقى مكارم الأخلاق (ص ٨٤): إسناده صحيح، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٦٦٢): صحيح.

عَن هياج بن عمرَان البرجمي أَن غُلَاما لِأَبِيهِ أَبَقَ[1] فَجعَلَ لِلهِ عَلَيْهِ إِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَيَقْطَعَنَّ يَدَهُ فَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِ بَعَثَنِي إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْـمُثْلَةِ[2] «**مُرْ أَبَاكَ فَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ غُلَامِهِ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**».

وَبَعَثَنِي إِلَى سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْـمُثْلَةِ «**فَقُلْ لَهُ فَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ غُلَامِهِ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينه**»[3].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْـمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ، شَتَمْتُهُ، لَعَنْتُهُ، جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً، وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[4].

قَالَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ لِإِخْوَتِهِ الْأَسْبَاطِ - لَـمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ -: «يَا إِخْوَتَاهْ إِنِّي لَمْ أَنْتَصِفْ لِنَفْسِي مِنْ مَظْلِمَةٍ ظُلِمْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي كُنْتُ أُظْهِرُ الْحَسَنَةَ وَأَدْفِنُ السَّيِّئَةَ، فَذَلِكَ زَادِي مِنَ الدُّنْيَا، يَا إِخْوَتِي إِنِّي شَارَكْتُ آبَائِي فِي صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ فَأَشْرِكُونِي فِي قُبُورِهِمْ»[5].

قال معاوية: «عليكم بالحلم والاحتمال حتّى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصّفح والإفضال»[6].

عَنْ صَالِحِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي يَوْمًا إِنَّ فَضْلًا الْأَنْمَاطِيَّ جَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ، قَالَ: لَا جَعَلْتُ أَحَدًا فِي حِلٍّ أَبَدًا، قَالَ: فَتَبَسَّمَ، فَلَمَّا مَضَتْ أَيَّامٌ قَالَ: يَا بُنَيَّ مَرَرْتُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

(١) أبق: أي هرب من غير خوف من باب (قَتَلَ وَضَرَبَ).
(٢) المثلة: العقوبة بقطع طرف من الأطراف.
(٣) المنتقى من مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي ص (٨٨) رقم (١٨٢).
(٤) رواه البخاري - الفتح ١١ (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) واللفظ له.
(٥) المنتقى من مكارم الأخلاق ص (٨٤) رقم (١٧١).
(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٤).



[الشورى:٤٠]، فَنَظَرْتُ فِي تَفْسِيرِهَا، فَإِذَا هُوَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَامَ مُنَادٍ فَنَادَى: لَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا، فَجَعَلْتُ الْمَيِّتَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَرْبِهِ إِيَّايَ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ: وَمَا عَلَى رَجُلٍ أَلَّا يُعَذِّبَ اللهُ بِسَبَبِهِ أَحَدًا»(١).

الابتسامة السادسة: صبغة الابتسامة على أبواب الخيرات جميعًا بـ:

ولو طوَّفنا الآن بأبواب الخيرات والقربات لوجدنا أن الابتسامة ملازمة لكل باب منها وأن الابتسامة نورها، وأنها شهادة صدقها، وأنها مع كل خير من الخيرات لها صبغتها وعطرها وطيبها.. وأنك لا تكاد تتصور بابًا من أبواب الإحسان للناس ونفعهم إلا والابتسامة ملازمة له سواءٌ ذكرت في الباب نصًّا، أو لم تذكر فيه للعلم بها، بل للقطع في تحققها فهذا [باب الإحسان] لا يستغني أبدًا عن الابتسام، وذاك [باب الأخوة]، وباب [الأسوة الحسنة] وكيف لا تلازم الابتسامة القدوة الحسنة، وكيف تكون قدوة بغير ابتسام، بل كيف تكون حسنة وأي حسن فيها إن لم يكن فيها ابتسام، وهذا [باب الإصلاح] وهل مفتاح الإصلاح وقبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأساس إلا بالتلطف والابتسام؟!

وهل يكون [البر] إلا ويلازمه الابتسام، وهل [للتفاؤل] شاهد مثل الابتسامة، وهل يكون [حسن الجوار] إلا بالابتسامة الدائمة للجار، بل ترك الابتسامة ولو مرة في وجه الجار أو الصاحب أو القريب داعٍ للتساؤل والتخوف، فكيف والمطلوب هو الإحسان للجار، فهي أول الإحسان وأوسطه وآخره، فكيف بباب التودد، وباب التواضع، وباب الدعوة إلى الله، وباب الرجاء، وباب الرأفة، وباب الرحمة، وباب الرضا، وباب الترغيب، وباب الرفق، وباب السخاء، وباب السماحة، وباب الشفاعة، وباب الشفقة، وباب الشكر، وباب الصفح، وباب صلة الرحم، وباب الطمأنينة، وباب العفو والغفران، وباب عيادة المريض، وباب الفرح بفضل الله وبرحمته، وباب كفالة اليتيم، وباب اللين، وباب الحلم، وباب المداراة، وباب المواساة، وباب النبل، وباب الوفاء، وباب الوقار.

---

(١) المنتقى من مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي ص (٨٦) رقم (١٧٨).

إذًا فإن الخير والابتسامة لا يفترقان... ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦-٢٨]، فقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾ لا بد أن تكون نتيجتها الطبيعية الراحة والخفة والابتسامة الدائمة، ألا ترى رجلًا هو ضعيف بطبعه وعليه أحمال ثقال كيف يبتسم... كيف إذا جاءه مَن يرفع عنه هذه الأحمال الثقيلة عن كاهله ألا يرتاح، ألا يبتسم.. هذا هو ما قاله الله عن رسوله ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧،١٥٨]، فهذه من آيات سورة النساء تفصح عن غاية التكاليف والأحكام والتشريعات بما فيها القصاص في أكبر بحرٍ للتشريعات في القرآن العظيم سورة النساء، فختام ما ذكر الله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾، فليست الابتسامة مجرد تكشيرة أسنان، بل الابتسامة سعادة إنسان وفرحة إيمان، وسرور بزوال آصار وأثقال وذهاب هموم وأحزان.. الابتسامة استعداد للإحسان، بل هي صورة الإحسان، والذي يفصح عن الإحسان في العادة إنما هي الابتسامة من الإنسان للإنسان.. فالابتسامة إنما هي اللسان الناطق المبين عن كل ذلك.. والمعبِّر عن الرضا والأُنس وحقيقته، فإن غابت فهنا يكون التفقد والسؤال، وهنا يكون عون المسلم لأخيه حتى تنجلي الأحزان وتعود الابتسامة، فليس غياب الابتسامة أمرًا طبيعيًّا، بل ظهورها على وجه المسلم في كل حال هو الطبيعي، وهو الأصل، وهو الرضا، وهو جزء لا يتجزأ من التحية والسلام؛ فإن غروب الابتسامة شروق للشقاء والهموم والأحزان والعناء، نعوذ بالله من ذلك.



الابتسامة السابعة: الابتسامة من الأعمال المتعدية للآخرين:

فالابتسامة عطاء من غير إنفاق.. وراحة للمقابل من غير مال، وعطاء الله لك أكبر من عطائك، وسعادة من الله إليك قادمة أكبر مما أنت فيه.. وسكينة بإذن الله ملازمة.. إذ هي بذاتها سكينة سبقتك إليك من ربك سبحانه، وهي رضوان من الله قبل رضوانك، ألم يقل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] فكيف لا تكون عطاءً مزدوجًا لك ولمَن يقابلك وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[١]..

صدقة تتصدق بها على مَن هو أعلى منك، وأغنى منك، وأقدر منك.. والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[٢]، فهل مَن مكَّنه الله من هذه الصدقة يبخل بها على نفسه قبل أن يبخل بها على الآخرين... إذًا فهذا الأمر منضبط في شرع الله ومنظم نظامًا يقطع كل اختلاف هذا لمن أراد النظام، وميدان سباق عظيم لمن أراد السباق حتى يدخل السباق في نوعية الابتسامة.

ولأنها من الأعمال المتعدية فيجب أن تتعدى إلى الآخرين دون تحفظ.. على مَن تعرف ومَن لا تعرف؛ ولذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمَّن يقابلك: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»، فهي أعظم علامة على أنه أخوك قبل أن تعرف اسمه ومقامه.. وتحدد في المجتمع عنوانه، وهي دعوة لصداقة بل لعلاقة.. فمن ذا الذي لا يحب التعرف بالشخص السعيد ليسعد، ويستصبح بالوجه الطلق ليسعد؟!

وليس من ابتسامة تعدَّى خيرها للآخرين وجمعت حسناها شريعة الله جمعًا مثل الابتسامة الأخيرة في هذا الكتاب، وهي ابتسامة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأخيرة.. فانتظر حتى تصل في تدرجك هذا.

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٢) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الابتسامة الثامنة: الابتسامة فرقان:

فرقان بينك وبين البخيل.. فالبخيل يخاف الابتسامة، وإن ابتسم فإنها لا تدوم إذ هو حَذِرٌ من تبعاتها لأنه حذر من طلباتها.. وما أثقلها عليه.. فإن أكبر ما يخشاه البخيل أن يطمع فيه المقابل، أو يكون محتاجًا فيلجأ إليه، أو يكون مكروبًا فيطلب كشف كربته، أو يكون مدينًا مضطرًا فيطمع في مساعدته أو شفاعته، بل يخاف البخيل أن يبتسم فيتجرأ عليه الآخر فيحرجه ويضطره إلى كلمة: [تفضل]، فيستجيب المقابل فتنقص من وجبته لقمة! ورب العالمين يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٦،١٧].

بينما تبسمك في وجه أخيك وأنت الكريم: **دعوة ضمنية لأخيك وأنت لم تتكلم: أن أَفْصِحْ لي عن مكنون همومك وغمومك فلعلي** أستطيع مساعدتك بمالي أو بجاهي ومعارفي أو معارف معارفي، أو نجدتي لك أو بشفاعتي، بحملي لك أو تخفيف حملك ولو كان تخفيفًا قليلًا، فالتنفيس القليل عن الوعاء المضغوط ينقذ من الانفجار والدمار، ويجلي الظلمات عن الصدور والعيون، وأول ذلك الكشف إنما كان ابتسامتك، فمن هو الرابح: أهو البخيل الذي بخل بابتسامة، أم المتصدق بابتسامةٍ فتحت له - بإذن الله - آفاقًا من الصدقات وتفريج الكربات.. وإن الذي وهبه الابتسامة يعينه ويزيده ويمكنه ويفتح له في هذا الباب أبوابًا مغلقة وظلمات مطبقة، ويهديه الله لحلول معضلات لم تخطر على بال صاحبها المكروب ولا بال سواه.

تبسمك في وجه خادمك، أو خادم جارك، أو سائقك، أو سائق جارك، وهو يريد أن يسافر، وقد جاءك ليسلم عليك قبل يوم من سفره لَيُثِيرُ في نفسك - أيها المبتسم، بل المتصدق - الشكر له أنْ نبَّهك إلى سفَرِه، وإلا لبقيت في حسرة إن سافر في غفلة منك وأنت لم تتحفه بشيء منحة منك، أو عطية يستعين بها إذ سيبقى هناك

في بلده الفقير شهرين أو نحوها من غير عمل.. حتى وإن كان هذا السائق عنده في بلده سيارات مثلًا - كما يذكر بعض الأشحة - فإنه قد ظن بك ظنًّا حسنًا، فلا تكن أقل من ظن أخيك فيك.. ولعله إن كان غنيًّا أن يتعلم منك الصدقة، أو لم يقل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ: فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ**»(١)، بينما البخيل - وهو مليء - لا يبتسم في وجه الخادم، أو السائق الذي جاء يخبره بسفره فحسب، ولكنه لا يتحرج أن يقول له بكل صفاقة: أو ما تعرف طريق المطار....؟! وأنا أقول لك: بل أنت لا تعرف طريق القلوب أيها المحروم، وشتان ما بين طريق القلوب وطريق الجيوب! وأخشى عليك أن لا تعرف طريق الجنة فأنت في أهل الإسلام من أعظم المحرومين، هدانا الله وإياكم أجمعين، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَخَلَقَ فِيهَا ثِمَارَهَا، وَشَقَّ فِيهَا أَنْهَارَهَا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْـمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ**»(٢).

الابتسامة التاسعة: ابتسامة أُمَّة:

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْـمَعْرُوفِ**

(١) رواه البخاري (١٤٢١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥٥١٨)، وقال: لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ السُّدِّيِّ إِلاَّ حَمَّادُ بْنُ عِيسَى، تَفَرَّدَ بِهِ: مِنْجَابٌ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٩٧) رقم: ١٨٦٣٩): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالْكَبِيرِ، وَأَحَدُ إِسْنَادَيِ الطَّبَرَانِيِّ فِي الْأَوْسَطِ جَيِّدٌ.

شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[1].

كل حديث ثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الابتسامة فهو للأمة كلها، فلا حاجة إلى حديث يقول فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصًّا: [يا أمتي ابتسمي]، فهذا تبلد في دين الله، وحاشا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يأمر أُمَّته بالتبلد! ثم إن كل حديث ثابت في سلم المسلم على المسلم الفرد أو على الجماعة إنما هو في الابتسامة، فالسلام مع العبوس قبيح، والسلام مع الابتسامة سرور يشبع ونور يسطع، والسلام مع انبساط الوجه زينة، وهو نوع من الابتسام.

يا لغلاها من وسيلة، بل فسيلة؛ فأي الأمم عندهم الابتسامة عبادة وصدقة وقربة إلا أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وهي عبادة لا ترتبط بوقت ولا حال، ومن ثَمَّ فإن سنة الابتسامة سنة قائمة مشرقة كإشراقة هذه الأمة بين الأمم.. فلنتمسك بها حق الاستمساك، فإن الأمم في هذا العصر خاصة ما عادت تجعل لغير المادة والمصلحة وزنًا أبدًا، وما عاد مَن يبتسم من قلبه، وما عاد مَن يبتسم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. ولو أن رجلًا زار بلادًا وقد وجد مدنها متشابهة في كل شيء؛ أسواقها.. مساجدها.. ملاعبها.. مجالسها.. مجامعها.. جمالها.. أعداد سكانها.. وهو يريد الاستقرار على واحدة من مدنها، إلا أنه لَحَظَ أن مدينة واحدة من بينها وجد أن سكانها يلاقونه بالابتسامة الصادقة.. فهل يختار غير هذه المدينة الباسمة.. إنه يختار نوعَ صباحِه ومسائِه.. إنه يختار نوع تعامله ولقاءاته.. إنه يختار صحبته وصحبه وولده.. إنه يختار نوعية المصلين في مسجده.. إنه يختار مجالسه وسماره.. إنه يختار أهل كربته قبل فرحته.. إنه يختار ردع أحزانه وطرد همومه وغمومه...

أرأيت كيف للابتسامة من وزن.. أرأيت كيف أن الابتسامة ترجح الكفة في أغلى شيء وهي الحياة والمعايشة.. أرأيت كيف أن الابتسامة ترجح كفة أمة على أمة، وتحدد الولاء لأمة على أمة.. أرأيت كيف دلَّنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الكنز الثمين الذي لا يقدِّر بثمن ونحن لم نأخذه بما يستحق بعد.

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

وحين نقول: إننا نحن الأمة الباسمة، فهذا هو الحق المبين.. فنحن مستقبل الأمم الباسم.. نحن مَن لا خيار سوانا ولا بديل عنا.. نحن اختيار لأهلك ولذريتك.. نحن المستقبل - بإذن الله - كلُّه.

وحين نقول: إنها الأمة الباسمة فلأنها أمة [السلام]، واسمه سبحانه [السلام]، وتحيتها السلام، وأعلى صور السلام أن يكون مع الابتسام كما في الحديث: «**وَتُكَلِّمَ أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ**»[1]، ورب العالمين يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

إن كل حديث ورد في الابتسام لفردٍ من المسلمين.. فإن المقصود هم الأمة كلها، لأن المقصود كل فردٍ في الأمة.. ولذا حافظت الأمة على بعض الابتسام حتى هذا العصر، ولم يندثر كما اندثرت وتغيرت كثير من السنن، وبقي البعض على الابتسام وسم النور في وجوه أبناء هذه الأمة دون سواهم في وجوه الناس كافة.

الابتسامة العاشرة: الابتسامة مشروع هداية:

ما أغلى الابتسامة!: إذ هي مفتاح مباشر للقلب لمن فتح قلبه له، وهل من شاهد على هذا قبل الكلام وقبل المصافحة مثل هذه الابتسامة.. إنها اللغة الصادقة التي لا تقاوم، والنور المشرق الذي يخترق فلا يحرق ولا يمزق..

وإن من يحمل دعوة الله تعالى يحمل نور الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويمشي به في الناس؛ نعم يمشي به في الناس، كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهل يليق بمَن يحمل نور الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويمشي به في الناس ووجهه مظلم مكفهر يائس بائس.. هل يليق بمَن جعل الله له نورًا يمشي به في الناس

(١) رواه ابن حبان (٨٩٦)، وصححه الألباني.

إلا أن يسعى بكل جهد حتى يفتح الطريق له، وأن يزيل العقبات من طريقه، وهل من مفتاح نور يناسب حمل النور العظيم مثل مفتاح الابتسامة يقدمها الداعي بين يدي دعوته.. فيجتمع إشراق الابتسامة الحسي الذي تراه بعينيك، وتكاد ترى معها صبغتها وهو صدقها، كما تكاد ترى خلوصها من المطامع، وتكاد ترى نبع حبها العميق... فتنهدُّ كل حجب الشيطان – نعوذ بالله منه – أمامها.. فتهيئ بالابتسامة الكريمة مَن أَمامك من غير المهتدين للهداية، وقد زالت الحجب، ورفع الحرج، وتهيأ القلب لطارق الخير والهدى.. بعدما طرق القلب طارق الحب.. وأي حب يدفع ابتسامة مشرقة من شخص لشخص أعظم من محبة هدايته.. والمقابل لابتسامتك يقدرها جيدًا ويدركها حق الإدراك.. لأنها لامست أعماقه هو.

وهذه الابتسامة رافقت الدعاة إلى الله أنَّى رحلوا، فهي السلاح حين وضع سلاح القتال خارج أسوار البلدان ودخل الدعاة الهداة بديلًا عن الجيش إلى داخل هذا الميدان، وتحوَّل الجند من ميدان آخر بسلاح الابتسامة الطيبة، والكلمة الطيبة، والحجة البالغة.. ففككوا بها أسوأ الملل والنحل والأديان.. وأنقذوا الأمم من جهالات وظلم وظلمات ودخل الناس في دين الله أفواجًا.. سلاحهم النور الذي يمشي كل واحد منهم به في الناس يسبقه نوره بين يديه كما تسبق الابتسامة كل لقاء وكل حديث.. ذلك هو مفتاح القلوب وممهد الطريق قبل الحديث والحوار، بل إنها ابتسامة الهداية والاهتداء.

هذا ليس تكلفًا، وإنما هو لازم من لوازم قبول الغرباء على أهل كل بلاد.. كما هو الشأن مع كل مسلم في كل زمان، ومع كل الناس، فكيف بمَن شُرع له الابتسام مع كل إنسان وإن لم يكن من أهل الإسلام... فكيف إذًا والرجاء هنا من الله هو هداية المقابل للإسلام.. والهداية من الفسوق والعصيان.

يكفي لكي يعرف مَن يريد أن يحمل دعوة الله أن الأصل في الدعوة إلى الله التبشير، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ [الكهف: ٥٦]،

ويقول سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهذه البشارة وغيرها من البشائر يحملها المؤمن يبلغ الناس بها مبشِّرًا مستبشرًا بهدايتهم... وكل حديث في البشارة والاستبشار والبشرى تنشرح له الصدور، ويذهب عنها الضيق، وتقبل على الهموم أفكار الخير والسعادة والحلول - بإذن الله -، فالقرآن العظيم كله ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»(١).

لا بشرى للأمة كلها مثل هذه البشرى، ولأن هذه البشرى ليست مجرد خبر، إنما البشرى كنز، والكنز عادة ما يحفظ لوقته ولا يُنفق في وقت السعة، وما ورد أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فتح هذا الكنز لأمته في ذلك الوقت، والوقت وقت فتوح وانتصارات كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [الفتح: ١]، إنما الحاجة حاجة الأيتام الذين تفرقوا واختلفوا وتمزقوا وافتقروا.. فالأساس في هذه البشارة العظمى أنها لأشد ما تكون الأمة حاجة، ولم يمرّ على الأمة شدة مثل هذه الشدة مطلقًا، وقد دعا لها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ودعا وهو صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العليم لأي وقت، وبما أن الله قد أخبره بكل شيء عن هذا العصر، لذا كان جوابه: «**سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**»(٢)، وها قد جاء - بإذن الله - وقت الرضا.. جاء الوقت الذي ادَّخر له رسول



---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).
(٢) رواه مسلم (٢٠٢).

الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الكنز الأعظم إذ الأمة في العصر الأطم الأظلم، وتفصيل هذا من خلال الآية يطول جدًّا وليس هذا موضعه، ولكن يكفي الختام ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فانصرنا على القوم الكافرين أجمعين ودون استثناء.. فيزول الكفر زوالًا حقيقيًّا عن الأرض في أغلبه، وزوال حكم وعلو لقلة قليلة جدًّا من البلاد في عهد المهدي فيستسلم العالم كله لحكمه.

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُم عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ السِّتَارَةَ - وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ - فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْـمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عَزَّوَجَلَّ، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ**(٢) **أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»(٣).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْـمَوْتَ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْـمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْـمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»(٤).

---

(١) رواه أحمد (٢١٢٢٢)، والحاكم (٨٠٩٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.
(٢) فقمن: بفتح الميم وكسرها، ومعناه حقيق وجدير.
(٣) رواه البخاري (٦٩٩٠)، ومسلم (٤٧٩) واللفظ له.
(٤) رواه البخاري (٦٥٠٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٨٣).



الابتسامة الحادية عشرة: الابتسامة أصل:

إنها الحالة التي ما كادت تغيب عن وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإذا ما غابت مرة جاء مَن سأله من أصحابه أو أزواجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بك فداك أبي وأمي؟!... وأي شيء كان يهمه ويخفي ابتسامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا همَّ أمته في الدنيا أو همهم في الآخرة، وأي إعلان لمن ذهاب همه أظهر وأعظم من تهلل وجهه وإشراق ابتسامته، كما صح في الحديث عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ، أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ، وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ﴾ [الحشر:١٨]، «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ**» قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ، وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»(١)، حتى أن جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو سيد بجيلة قَالَ: لَـمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «**يَا جَرِيرُ لِأَيِّ شَيْءٍ جِئْتَ؟**» قَالَ: جِئْتُ لِأُسْلِمَ عَلَى يَدَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَأَلْقَى إِلَيَّ كِسَاءَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: «**إِذَا جَاءَكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ قَالَ: وَكَانَ لَا يَرَانِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي(٢).

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٦٨٧)، وقال: ولَه شاهِدٌ مِن حَديثِ الشَّعبِيِّ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرسَلًا.

فالابتسامة أصل، والهم والغم والحَزَن أمر طارئ مكروه... وكفاه أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استعاذ بالله منه ليس مرة ولا مرتين، بل كثيرًا كثيرًا بشكل مطلق.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِأَبِي طَلْحَةَ: «الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ. فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ مُرْدِفِي وَأَنَا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»**(١).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»**(٢).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا كَانَتْ تَأْمُرُ بِالتَّلْبِينِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمَحْزُونِ عَلَى الْهَالِكِ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«إِنَّ التَّلْبِينَةَ تُجِمُّ فُؤَادَ الْمَرِيضِ وَتَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ»**(٣).

إذًا فالحزن في الفؤاد، وهذا هو دواء للحزن والكآبة، فالكآبة يتعامل معها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمرض ويصف لها وصفتها الخاصة بها.

فإنه يجب أن يتقرر عندنا أن الأصل عند لقاء الأخ لأخيه، والولد لأبيه، والوالد لولده، والزوج لزوجه، والزوجة لزوجها، والصاحب لصاحبه، والمسلم لأخيه، والمتحدث لمتحدثه، والمسلم لأي إنسان هو الابتسامة وطلاقة الوجه.

كان النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر النّاس تبسّما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجّبا ممّا تحدّثوا به وخلطا لنفسه بهم، ولربّما ضحك حتّى تبدو نواجذه. **قال الحافظ العراقيّ:** حديث «**كان أكثر النّاس تبسّما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجّبا مما تحدّثوا به**



(١) رواه البخاري (٢٨٩٣).
(٢) رواه مسلم (٢١٨٤).
(٣) رواه البخاري (٥٦٨٩).

وخلطا لنفسه بهم» أخرجه التّرمذيّ في الشّمائل من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء. ما رأيت أحدًا أكثر تبسّما من رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وفي الصّحيحين من حديث جرير من حديث عليّ: يضحك ممّا تضحكون منه ويتعجّب ممّا تعجبون منه، ومسلم من حديث جابر بن سمرة: كانوا يتحدّثون في أمر الجاهليّة فيضحكون ويتبسّم»[١].

أخرج التّرمذيّ في الشّمائل: كان ضحك أصحابه عنده التّبسّم اقتداء به وتوقيرًا له[٢].

فإذا كان هذا حال رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين أصحابه فكيف بحاله إذا لقي فردًا أو لقي وفدًا، أو لقي يتيمًا أو لاعب وداعب صغيرًا، أو كان مع أهله.. أي أننا لا نحتاج أن نقول: مسح رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأس اليتيم وهو مبتسم لأنه لم يذكر! أو تصدق وهو مبتسم! أو لاقى الوفد وهو مبتسم! أو نحو ذلك من حالات الأنس والسعادة والقربات! فهذا تكلف واضطراب، ورب العالمين يقول عن رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، بل هذه ميادين للسباق في الإحسان عند تطبيقها والعمل بها، والمسلم ليس بالبليد الذي يُلقَّن كل شيء تلقينًا.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلهِ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**»[٣].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ، فَرَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: آنْتِ هِيَهْ؟ لَقَدْ كَبِرْتِ لَا كَبِرَ سِنُّكِ، فَرَجَعَتِ

(١) الإحياء (٢/ ١٩١)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (ح ١٩٤)، وانظر الشمائل، باب ما جاء في ضحكه صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.
(٢) الإحياء (٢/ ١٩١)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (ح ١٩٤).
(٣) رواه أحمد (٢٢١٥٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٠): رواه أبو داود باختصار، ورواه أحمد ورجاله رجال صحيح.

الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ؟ قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللهِ ﷺ أَنْ لَا يَكْبَرَ سِنِّي فَالْآنَ لَا يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا، أَوْ قَالَتْ قَرْنِي، فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا[(١)] حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ: وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لَا يَكْبَرَ سِنُّهَا، وَلَا يَكْبَرَ قَرْنُهَا قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا، وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)].

لقد كانت هذه اليتيمة وحزنها وشكايتها سببًا في إعلامنا بهذا الخير العظيم الذي علمناه الآن، وذكَّرنا به رسول الله ﷺ، فما أحسنها من شكاية! وما أعظمها من بشرى.. لا تَصْدُق على الذين في عهده، بل حتى الذين من بعده إلى يوم القيامة.. فلا لعنة، ولا دعوة لرسول الله ﷺ على هذا الأمة أبدًا، ولا دعوة، ولا لعنة على أي فردٍ في هذه الأمة من رسول الله ﷺ أبدًا.. كلها أخذ فيها رسول الله ﷺ العفو، بل أخذ بها تبديلًا، وطهورًا، وزكاة، وقربة يقربه بها منه يوم لقيامة.. نعم هذه ليس لعهده.. فمَن في عهده لا يشكلون آحادًا بالنسبة لأعداد الأمة اليوم، ثم ماذا نصنع بقوله ﷺ: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي**»، ويقول ﷺ: «**فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ**»، إذًا فلا يقولن أحد: أصابتني دعوة رسول الله ﷺ.. اذهب إلى الله واخرج من استحقاق الدعوة، وستجد اسمك بمجرد عودتك إليه نادمًا موجودًا في سجل العفو، بل في سجل آخر.. وسترجع بالغنائم «**طَهُورًا، وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

(١) تلوث خمارها: أي تديره على رأسها.
(٢) رواه مسلم (٢٦٠٣).

عَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَالْبُشْرَى فِي وَجْهِهِ، فَقُلْنَا: إِنَّا لَنَرَى الْبُشْرَى فِي وَجْهِكَ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ أَتَانِي الْـمَلَكُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّهُ لا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ، إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ، إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا**»[١].

فسبحان الله؛ فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اعتادوا أن يروا البِشر على وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنهم اليوم رأوا شيئًا استثنائيًّا فكانت بشرى استثنائية بحق، إنها الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. إذًا حتى مقادير البِشر يلحظها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعرفونها.

وكم تمنيت هنا أن يشير علماء الحديث رَحِمَهُمُ اللَّهُ ورضي الله عنهم إلى أن السُّنَّة للمسلم أن يبتسم عند الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحًا كفرح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها.. ولو لابتسامة واحدة مشاركة له في فرحته، واقتداء به في سنته.. فلم لم تكن هذه من السنن الثابتة اليومية.. وإن ممارسة المؤمن للسنة لهو أجر وبشرى.

الابتسامة الثانية عشرة: تبسمك في وجه نفسك:

كانوا يقولون لنا: إن العلماء اكتشفوا إنه كذا وكذا من عضلات الوجه تتحرك عند الابتسامة أو الضحك، وكذا وكذا وبشكل أقل من الغضب.. وحين رجعت إلى المختصين في هذا المجال - جزاهم الله خيرًا - نفوا أن يكون لهذا مصدرٌ علميٌّ تشريحيّ طبيٌّ.. لكنهم أثبتوا أنه عند الغضب أو التجهُّم فإن العضلات والأعصاب تتجه نحو الانقباض.. وهذا الانقباض للعضلات هو الأكثر من الانبساط، وربما يؤثر سلبًا ويؤثر بدرجات متفاوتة... فلو كان الانقباض في مجرى وريد أو عصب سوف يجعل ضخ الدم فيما بعد ذلك أقل.. فيصاب في رقبته أو يصاب بدوخة أو نحو ذلك، ولربما كان العصب عصبًا حركيًّا فيصاب في الحركة لتلك الأجزاء سلبًا إصابات متفاوتة من الشلل إلى أقل شيء، بينما أثناء التبسُّم فإن العضلات والأعصاب تميل

(١) رواه النسائي (١٢٨٣)، وحسنه الألباني.

إلى الانبساط والانفراج، وهكذا هو صنيع الله وشهادته على وحدانية الله، فالانقباض للعضلات أثره انقباض في النفس، والانبساط في عضلات الوجه أثره الانبساط النفسي والفرج والانفراج العضلي والعصبي والحسي، إذًا فالإنسان في الحقيقة عند التبسم إنما يتصدق على نفسه قبل أن يتصدق على غيره، وإنما ينفع نفسه قبل أن ينفع غيره، وكما يحتاج الإنسان أن يبتسم في وجوه الآخرين وله بكل ابتسامة صدقة فإنه يحتاج أن يبتسم في وجه نفسه أولًا، كما هو في الحقيقة يحتاج أن يتصدق على نفسه قبل غيره، فكذلك يحتاج إلى أن يبتسم في وجهه هو قبل غيره.

وسبحان الله فإن الإنسان وبمجرد نظره في وجهه بالمرآة على أي حال ويبتسم فإنه يجد راحة نفسية عجيبة وعاجلة فيحمد الله سبحان الله على هذا، وهنا يذكر الدعاء كما في بعض الروايات؛ فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي، فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[1]، نعم الربط ما بين النظر في المرآة وبين الدعاء في حال نظر الإنسان في وجهه فيه كلام لأهل العلم إلا أن الدعاء نفسه ثابت ودعاء مطلق يدخل فيه هذا الحال كما يدخل فيه بقية الأحوال..

ثم إن للابتسامة فضائل كثيرة كما رأينا فكيف لا تستحق ممارستها الدربة عليها والتعود عليها إذ الإنسان هو بحاجة لها، ثم إن أثرها على أعصاب الوجه ونضارته وقوة عضلاته أمر حقيقي وشاهده علمي وواقعي، وعضلات الوجه كأي عضلات إذا أهملت ضعفت وشاخت، وإذا دُرِّبَتْ وحُرِّكَتْ وطوِّعت قويت وظهرت.. وما أحسن تمرينها بالابتسامة والحمد لله رب العالمين «**الْحَمْدُ لِلهِ، اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[2]، وسبحان الله ما أسرع جزاء الحمد هنا! والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، و «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[3].

---

(١) رواه ابن حبان (٦٧٣٤) في باب: ذِكْرُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا تَحْسِينَ خُلُقِهِ كَمَا تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِحُسْنِ صُورَتِهِ، وصححه الألباني.

(٢) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٦٣)، وقال الألباني: ضعيف جدًّا.

(٣) رواه البخاري (١).

جرب التبسم وأنت في همٍّ أو كرب وأنت تنظر في المرآة.. تبسَّم وانظر في وجهك وأنت تبتسم، وانظر كيف يطير الهم في لحظته كأن لم يكن، أو يطير كثيرٌ منه - على الأقل -، وكيف تفتح لك نافذة للفرج.. تهبُّ عليك منها نسمات الرحمة والسعة والراحة والفرج.. وعندها سوف يذهب الاضطراب وتبتدئ بالاتزان، وتُقبل الأفكار الإيجابية بالانجذاب إليك، ويخنس هنا الشيطان الرجيم عن الوساوس، وصدق الله إذ قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فلو اشتعلت فيك نار غضب حتى لو كانت على أهلك، أو ولدك، أو قريبك، أو شريكك، أو صاحبك، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وَقِفْ أمام المرآة وتبسم شاكرًا لله قائلًا: «**الْحَمْدُ لِلهِ، اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»(١) والنتيجة فورية بإذن الله.

فالتبسم في هذه الحالات أثره عجيب، وإن حصل أمام المرآة فإن أثره في النفس أوقع وأسرع وأنفع لأنك ترى الابتسامة بنفسك في وجهك الباسم المنفرج المبتهج.. فهي ابتسامة منك وإليك على وجه الحقيقة... كالصدقة على نفسك فنفسك أولى وأجرها أعظم.. وسبحان الله كأن الباب واحد والقفل واحد ما بين باب الصدر وباب الوجه، فإذا انفرج باب الوجه بالابتسامة انفتح باب الصدر بانفراجة وانشرح دخل النور على الصدور، وربنا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].. وهذا ما يُسمَّى في الوجه ابتسامة، وفي الصدور انشراحًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٢٥-٣٥]، ويقول سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ

(١) سبق تخريجه.

ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح:١-٨].

وسرٌّ من أسرار سريان مفعول هذه الابتسامة في الوجه الراحة في النفس.. هو الوحدة النفسية والعضوية لكل أعضاء الإنسان مع كل جوانب نفسه... فلا يملك عضو منه أن يتخلف إذا سارت الأعضاء؛ وهنا سارت الابتسامة من القلب والوجه.. فلا بد أن تسير وراءها النفس بجميع أعضائها وجوانبها.

إن هذه المجاهدة ونتيجتها مضمونة آمنة - بإذن الله -، إنها رمز للتحكم في النفس عند الاضطرابات وتغييرها ليس صوريًّا، بل تغيير الابتسامة جذري في قوة الشخصية الداخلية والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فما أقرب الإبصار منا عند التذكر.. وهذه الابتسامة إنما هي تَذكُّر وانقلاب إلى الحال المقابل، بل إلى أبغض حال عند الشيطان الرجيم - نعوذ بالله منه -، وهل التحكم الذي أمرنا به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا تغير الحال كمَن كان قائمًا أن يجلس، أو جالسًا أن يتكئ، وهذا هو المثير في الحال، وإشارته إلى عدم الاستسلام للغضب وآثاره، وابتداء الانقلاب والتحول إلى الحال الذي يحبه الله باتباع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكيف إذا كان الانقلاب إلى النقيض وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وحمد الله رب العالمين، ودعاء الله، وكشف الغمة والحزن بالابتسامة والسرور وذلك بالقول: «الْحَمْدُ لِلهِ، اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»[(١)]، وكيف إذا صحبتها نظرة في الوجه الكئيب فإذا به مبتهج من الوجه الباسم الرحيب.. إن جزاءها كما هو معتاد تَحوُّل الحال إلى أحسن حال، أي من الكآبة والغموم والغضب المحموم إلى السعادة، أي من الضيق والنُّفرة إلى النظرة والنضرة، وإذا نفعت هذه الابتسامة في هذه الظروف الاستثنائية فكيف لا تنفع بهذه النية وهذه الطريقة كلما توضأت... والوضوء نور أنت تنظر وتبتسم في وجه نفسك شاكرًا الله على نعمٍ نستحضرها في لحظتها لا تُعدُّ ولا تُحصى.

(١) سبق تخريجه.



حقًّا إنها شخصية أخرى تصنع صنعًا من الابتسامة والتطهر.. حقًّا إنه التطهير من رواسب نفسية لا تدرك، أو رواسب صدأت عليها النفس الإنسانية، وخشي الشخص أنها عُقد، أو حسد، أو عمل لا تزال آثاره باقية عليه حتى يموت وأنه لا فكاك منها أبدًا! فإذا بذلك كله أوهام بالنفس ووساوس الشيطان، وقد استعاذ النبي ﷺ من شرِّها بأعظم استعاذة فقال: «**اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مسلم**»[(١)].

وما ذاك إلا لأننا أمةُ حُبِّ الخير للناس كافة، أُمةٌ تحب أن ترى الابتسامة على وجوه الناس كافة، وإذا لم ترَ الأمم الابتسامة بسبب هذه الأمة فلربما لن تراها من الأمم الأخرى أبدًا، وأصعب شيء عندنا هو أن يكون الشخص أو الأمة التي تراها أمة مكروبة، أو مهمومة، أو مغمومة، أو مظلومة، أو نحو ذلك.. ولن تهدأ هذه الأمة حتى تكشف عن كربتها وتأخذ لها حقها.

الابتسامة الثالثة عشرة: ولادة أجور بالابتسامة لا منتهى لها:

لما اختفت الشخصية القوية.. الحكيمة من المجتمعات المسلمة إلا القليل اختفت الابتسامة الصادقة.. ومع هذا فالابتسامة الصادقة في المجتمع المسلم تبقى مظهرًا من مظاهر مجتمعاتنا لأن عموم المجتمعات المادية اليوم ليس عندهم ابتسامة إلا محسوبة بالمادة والمصالح والمردود الدنيوي المحض.

ولما كان الأمر عندهم كذلك اصطنعوا الابتسامة المتكلفة وخصوصًا أما الناس، وأمام أعين الكاميرات، حيث يقول رئيسهم أو مَن يُصَوَّر منهم بِصَمْتٍ كلمة (cees) لتخرج أسنانه وأنيابه للكاميرا.. فهي الابتسامة الخادعة، وليست الصادقة.

وأما نحن فالأمر شيء آخر عندنا فإن الابتسامة بداية مشاريع لا منتهى لها..

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٤)، وصححه الألباني.

أجور تولِّد أجورًا متتابعة لا انقطاع لها؛ فلك أن تتصور تطبيق الحديث: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[1]، وأنت الآن خارج من بيتك فأنت خارجٌ لمشروعِ صدقاتٍ منك على نفسك، فكل واحد تلاقيه أو يلاقيك تبتدئ أنت بالسلام والابتسامة، أو يبتدئك هو، فلك بابتسامتك هذه صدقة وأنت لم تقل ذكرًا، ولم تنطق بالعلم حرفًا، ولم تأمر ولم تنهَ عن شيء أبدًا، هذا غير أجر السلام... فإذا ابتدأت بالابتسامة فلك أجر الابتداء، فإذا ردَّ الآخر بابتسامة - كما هو المعتاد - فلك أجر التجاوب مع الابتسامة، وله أجران، وهكذا على السلام؛ فإن الابتداء به كاملًا لك عليه ثلاثون حسنة، فإذا أجاب الآخر فله بدل الأجر أجران، وفوق هذا فللمبتسم مثلما للمبتدئ بالسلام وهي درجة الخيرية، ودرجة أنه الأولى عند الله، فاحسب كم يلاقي المسلم كل يوم ممن يسلم عليهم ويبتسم في وجوههم!

إنها كنوز الصدقات العظيمة يرجع بها إلى بيته.. وهكذا كل مسلم خارج من بيته وعائد إليه فكأنهم الطير من البشر تغدو كل يومٍ خماصًا وتروح من الأجر بطانًا.. فأي مجتمع مثل المجتمع المسلم، والمسلم في نعمته هذه وسياحته بين الناس كثيرًا ما يلتقط وجهًا كئيبًا من بين الوجوه، أو تأتيه شكوى مكروب معروف، أو غير معروف يشكو حال أهله أكثر من حال نفسه.. هو يؤدي دوره ولا شيء يشغله عن دوره في حياته وبين أهله وفي مجتمعه، وفي أمته كذلك «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[2]، بل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذهب بنا إلى أبعد من الابتسامة فيقول: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[3]، فهل مَن خَرَجَ من بيته بهذا المقصد سوف ينسحب من تجمعات الناس، أو يمكن أن يفضل العزلة.. إذًا لو فعل ذلك لبارت تجارته وذهب

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥٩٥٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠١٧٤)، وصححه الألباني.

أجره ورجع خالي الوفاض من الصدقات... ولا شك أن من أصعب الأشياء الأذى من المسلم لأخيه المسلم؛ فإن جامع الإسلام بيننا محفز للإحسان بيننا، ومع هذا فالصبر هنا مطلوب، وما هو أعلى منه هو الرضا.

وأول ذلك هو سبق الإحسان بسبق الابتسامة التي تسبق السلام، بل ترافقه وتلاحقه «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هَذَا وَيَصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»[1]، كما مرَّ معنا في الحديث: «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ**»[2]، هذه ليست مثالية كما يتوهمها البعض، فإن الاختلاف بين المسلمين وارد، بل الاختلاف في الأسرة الواحدة وارد، ووارد كثيرًا.. إلا أن الأمر لا يترك للاختلافات تقضي على الأخوة وتنقض الاتفاقات وتفسد العلاقات فثمة ما يعالج القلوب أولًا بأول، وأول علاج القلب قبل الكلام هو الابتسامة؛ فالابتسامة تحجِّم الخلاف، وتوقف اتساعه على الأقل، وتطهِّر المختلفين من إساءة الظنون ابتداء، وتردعه من رد السيئة بالسيئة وأسوأ منها، وتقرب النفوس، وتسمح للمصلحين أن يتدخلوا، بل هي سرُّ النجاح بإذن الله، ذلك أنها تصنع إرادة الخير في النفوس وعندها يأتي ضمان النجاح والتوفيق من الله تعالى وعودة المياه إلى مجاريها، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥] فسبحان الله: أي عمق جعل الله للابتسامة في الحياة ودررًا وفي المجتمع.

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ**

(١) رواه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠).
(٢) رواه أبو داود (٥١٩٧)، وصححه الألباني.

قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثَبِّتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ»[(١)].

الابتسامة الرابعة عشرة: الابتسامة في وجه المستقبل:

فإن الشخصية المبتسمة إنما هي شخصية مستقرة، ومن هذه الشخصية ينبعث الفأل الحسن دائمًا ويحضر المستقبل المشرق مهما اشتدت الأزمات والإشكالات والأمراض، بل حتى لو حضر الموت... هكذا تتحول الشخصية الباسمة إلى حصن حصين ضد الظنون والأوهام والريب، وتتحول إلى جبل في وجه رياح التغيير والتبديل.

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»[(٢)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»[(٣)].

عَنْ حَيَّانَ أَبِي النَّضْرِ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ عَلَى أَبِي الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَجَلَسَ، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو الْأَسْوَدِ يَمِينَ وَاثِلَةَ، فَمَسَحَ بِهَا عَلَى عَيْنَيْهِ وَوَجْهِهِ لِبَيْعَتِهِ بِهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ وَاثِلَةُ: وَاحِدَةٌ أَسْأَلُكَ عَنْهَا. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ، وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ، أَيْ حَسَنٌ. قَالَ وَاثِلَةُ: أَبْشِرْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[(٤)].

لولا أن حسن الظن بالله أمرٌ في مقدور البشر واستطاعته لما كلَّف الله به.

(١) رواه الطبراني في الصغير (٨٦١)، وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).
(٣) رواه أحمد (٩٠٧٦)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.
(٤) رواه أحمد (١٦٠١٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.



ومن أسباب صناعة حسن الظن – بإذن الله – هو أن يصاحب الرجل حسني الظن بالله، ولهذا جاء في القرآن العظيم الحث على الصحبة الصالحة: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

يقابل هؤلاء مَن تعدَّى نظرهم إلى زينة الحياة الدنيا، وهؤلاء تكثر تخوفاتهم من فواتها، وتزيد حسراتهم بفواتها، وهؤلاء لا يدركون منها إلا ما كُتب لهم، ولكن حياتهم تستقر على الشؤم من المستقبل، وأعظم ما يخافونه هو الموت الذي يفرِّق بينهم وبين زينة الحياة الدنيا، فهم عند أنفسهم سعداء بغفلاتهم ونزواتهم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»(١).

والذي أراه – والله سبحانه أعلم – أنهم ثلاث خطوات، ثم ينطلق الإنسان في عالم حسن الظن مرتاحًا سعيدًا إلى أن يلقى الله.

الخطوة الأولى: هي أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. فالشيطان هو الذي يخوِّف، وهو الذي يُحزن، وهو الذي يُشَائِم النفس ويعصرها حتى تشعر أنها تختنق، ويبلغ بها أن تخنق نفسها، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

إذًا، فالواجب الأول هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وعلى أصحاب الدراسات النفسية من المسلمين أن يحذروا من استغفال الشيطان وشِرْكه وشَرَكه، أن لا يستروا الشيطان بدراساتهم.. فلا يأتوا له على ذكره ولا يحضوا على الاستعاذة بالله منه، فإن هذا هو مراد الشيطان تحديدًا – نعوذ بالله منه – ليتمكن فيفعل أفاعيله

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

وهو لا يُذكر ولا يُستعاذ بالله منه، والله سبحانه قد قال لآدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، أي أن الله سبحانه قد عرَّف آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعدوه أوضح تعريف؛ فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ إلى آخر الآية.. ولو كان للإنسان أن يترك الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم لتركها وهو يقرأ القرآن، أو وهو خارج من بيته إلى المسجد، أو عند دخوله المسجد، أو عند الوقوف بين يدي الله للصلاة... فالمسألة مع الشيطان الرجيم - نعوذ بالله منه - ليست بالعقل.. فكم يركب الشيطان العقل ويجري بصاحبه حيث يشاء!

والخطوة الثانية: هي الخطوة العملية للإقدام، ولا أجد أحسن من الابتسامة، فإن مفتاح النور الحسي للصدور هو الابتسامة التي تنشرح بها الصدور وتستجلب النور فتشرق الصدور، فكأنها نافذة واحدة إذا فتحت في الوجه شع النور مباشرة في الصدر.

والنور هنا إنما هو نور من النظر.. نور الأمل.. نور المستقبل القادم.. نور الغيب الآتي.. وكله من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

ولذلك جاءت تلك الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم - نعوذ بالله منه - «**اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مسلم**»[(١)].

وانظر في استعاذة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند خروجه من بيته، وتدبر في عظمة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند دخول المسجد ويا لها من عظمة؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْـمَسْجِدَ قَالَ:

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٤)، وصححه الألباني.

«**أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»، قَالَ: أَقَطْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا قَالَ: ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ[1].

أما في الوقوف بين يدي الله في الصلاة؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ وَاسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ وَكَبَّرَ، قَالَ: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»[2].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ كَبَّرَ، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»[3].

وهذا الظن الحسن إذا ما وجد لا يبالي العبد بالمقبل عليه ولو كان الموت نفسه، ألم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»[4].

وراوي هذا الحديث وهو الصحابي جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين يذكر هذا الحديث يذكر أولًا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله قبل موته بثلاثة أيام؛ فانظر إلى علم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعظيم ربطهم وعظيم مآلات أقوالهم ورواياتهم، وانظر قبل ذلك وبعده إلى كيفية تحقيق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسن الظن بالله، وأنه علَّم الأمة كيف تستقبل الموت - وهو الأشد الأصعب - حين طلع عليهم بأعظم ابتسامة رؤيت،

(١) رواه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد (١١٤٧٣) واللفظ له، والترمذي (٢٤٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.
(٣) رواه الترمذي (٢٤٠)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن.
(٤) رواه مسلم (٢٨٧٧).

وأعظم إشراقة طلعت ما بين السماء والأرض على وجه مخلوق، فاللهم صلِّ على رسولك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الخطوة الثالثة: حسن العبادة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بالله من حُسنِ العبادة**»[1].

إذا صلحت الصلاة صلحت الحياة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولأن الصلاة «**إِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**»[2]، هكذا هي في الآخرة كما هي في الدنيا، وإنه سبحانه يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، ولقد علَّم الله سبحانه بني إسرائيل عندما اشتد عليهم الأمر وبلغت القلوب الحناجر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]، ثم إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو رسول الله الذي يوحى إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ينصح هذه النصيحة لأمته، ويقرر هذه الحقيقة في هذا الحديث: «**إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بالله من حُسنِ العبادة**» فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المجرِّب لهذا، فقد روى حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**»[3]، ويقول: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»[4]، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم ماذا في الصلاة، وماذا تصنع، وماذا صنعت الصلاة في العرش يوم بدر، وعند كل شدة، ولكن يتحدث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما تصنعه الصلاة قبل

(١) قال محقق جامع الأصول: رواه الترمذي رقم (٣٦٠٤) في الدعوات، باب رقم (١٤٦)، وأبو داود رقم (٤٩٩٣) في الأدب، باب في حسن الظن، ورواه أيضًا أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٧ و ٣٠٤ و ٣٥٩ و ٤٠٧ و ٤٩١)، وهو حديث حسن.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٨٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٢) رقم (١٦٠٨): وَفِيهِ الْقَاسِمُ بْنُ عُثْمَانَ قَالَ الْبُخَارِيُّ: لَهُ أَحَادِيثُ لَا يُتَابَعُ عَلَيْهَا. وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ: رُبَّمَا أَخْطَأَ.

(٣) رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني.

كل شدة، وفي الحياة، وطوارق الليل والنهار، فإن الصلاة أحسن عدة للمستقبل، والصلاة أحسن عدة لأنواع الطوارئ والطوارق - نعوذ بالله من طوارق الشر.. ذلك أن الصلاة صلة.. فالصلاة علاقة بالله تعالى.. فإذا أحسنت الصلاة كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد حسنت العلاقة بالله، وإذا زادت توثقت أكثر وأكثر، وصار العبد أعرف بالله، ومَن عرف الله كان حَسَن الظن بالله، ولم يخطر في باله سوء ظن بالله، بينما مَن لا يذكرون الله في صلاتهم إلا قليلًا قال الله عنهم في ذات الموقف: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١١-٢٠]، بينما قال الله عن المؤمنين - بعد هؤلاء المنافقين -: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، ولا عجب فإن الفارق هو الصلاة، فقد قال الله سبحانه عن المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ

﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٦-٣٨]، فكم يفوِّت الناس على إصلاح أنفسهم من العلاج، والشقاء، والارتقاء، وترسيخ العلاقة بالله، بما لا يمكن للقلم أن يبلغه، وترسيخ حسن الظن بالله، وترسيخ الفأل الحسن، وتجاوز النظر للعقبة القاطعة المانعة المظلمة!

إن حُسْن الظن بالله إنما هو من حسن صلاة المرء.. وحسن الصلاة هذا منجاة للعبد في كربات الدنيا، وكذلك في الآخرة، فإن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة إنما هو الصلاة، ولكن ليس لمجرد الصلاة ناج؛ فقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ**»[(١)].

وهكذا حسن الصيام، وحسن قراءة القرآن، وحسن الحج، وحسن العمرة، وحسن الأذكار، وحسن الصدقات، وحسن هذه الابتسامة العظيمة.. بل إن للابتسامة علاقة مباشرة بحسن الظن، كما أنها هي عبادة.

الابتسامة الخامسة عشرة: الرؤيا الصالحة:

هذه حقيقة عظيمة تحدث أمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرارًا.. ويسأل عنها مرارًا وتكرارًا... وكأنه يسأل لنا نحن الذين في آخر الزمان.. فأما صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فعندهم

(١) رواه الترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥)، وصححه الألباني.



رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والوحي يتنزل عليه.. كفاها أنها تبعث الأمل الجديد.. وتنشر السرور.. ويلوح بها العز والعلو والأفراح.

والرؤيا الصالحة لا تكون إلا من الله، وكل رؤيا من الله فهي من المبشرات، وأما الرؤيا السيئة فهي من الشيطان - نعوذ بالله منه - كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: حَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفُ الشَّيْطَانِ، وَبُشْرَى مِنَ اللهِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلَا يَقُصَّهُ عَلَى أَحَدٍ وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ**»[1].

وإذا ما جاء زمان الفتن هذا وبعد الناس عن عهد النبوة ازدادت الرؤيا الصالحة، وهذا من فضل الله على هذه الأمة، ذلك أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في آخر حياته: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ**»، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ**»[2].

والبعض ينغص على الأمة بقول منسوب للإمام أحمد: كان سفيان الثوري إذا قيل له: إنه رؤي في المنام، يقول: أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات[3].

وهذا يدل على أن الإمام أحمد أراد التخفي بعبادته وحالته الخاصة مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كما أنه ربما لم يثق كثيرًا برؤيا هؤلاء، وإلا كيف يردها الإمام أحمد - حاشاه - وهو يعلم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتمد الرؤيا والوحي ينزل عليه، كيف يتطلب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرؤيا من أصحابه تطلبًا ويسألهم كل يوم بعد صلاة الفجر عنها؛ فَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا؟**»[4]، ثم إن قوله

---

(١) رواه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).
(٢) رواه البخاري (٦٩٩٠).
(٣) سير أعلام النبوة (٧/ ٢٥٢).
(٤) رواه مسلم (٢٢٧٥).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْـمُبَشِّرَاتُ**» لأنها حقيقة، ولأنها تبشر بخير وبشراها بحق وليست أوهامًا، أو وساوس شيطان - نعوذ بالله منه -، ولأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد للناس أن يستبشروا ويتباشروا، ويفرحوا وتدوم الابتسامة على وجوههم.. وهل البِشارة إلا من البَشَرة[(١)]؟!

وهنا سؤال: لماذا يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حياته: [أنه ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات]؟ أليس هو إخبارًا عظيمًا ليعتدَّ بها المؤمنون، ويفرحوا بها، ذلك أن رؤيا المؤمن الصادقة فيها خيط من خيوط النبوة الباقية التي لا تنقطع، ومَن ذا الذي يستطيع قطعها وإن كانت خيطًا من ستَّةٍ وأربعين خيطًا.. ويعلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كم ستحتاج أمته إلى المبشرات في زمان امتلأ بالنكبات، والظلم والظلمات.. لذلك أكَّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رؤيا المؤمن - وعلى الأخص في الفترة الأخيرة من هذه الدنيا - لا تكاد تكذب؛ أي: لا تكاد تخطئ، كما في الحديث الذي مرَّ معنا.

وإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كل يومٍ بعد صلاة الفجر سؤالًا عامًّا عما رأوا البارحة في منامهم، هذا والوحي ينزل عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صباح مساء، فهو إنما يوثِّق علاقة المؤمن بالله من خلال الرؤيا الصالحة.. كما أن علاقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالله من خلال الوحي الذي يأتيه.. أليس من عند الله سبحانه؟! ثم إنه يعلمهم ويعلمنا كذلك التعبير، وإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد إشاعة البشائر في الأمة حيث إنه ألغى الشؤم، ورؤيا التخويف، والحزن، والتحزين، وقال: هي من الشيطان.. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: حَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفُ الشَّيْطَانِ، وَبُشْرَى مِنَ اللهِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلَا يَقُصَّهُ عَلَى أَحَدٍ وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ**»[(٢)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا**

(١) البَشَرَةُ: أعلى جلدة الوجه والجسد من الإنسان. وأصل هذا كله أن بَشَرَةَ الإنسان تنبسط عند السرور؛ ومن هذا قولهم: فلان يلقاني بِبِشْرٍ أي: بوجه مُنْبَسِطٍ. اهـ. من لسان العرب (٤/ ٦٠، ٦٢).

(٢) رواه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).



الْـمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْـمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْـمَرْءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ»(١).

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: مِنْهَا أَهَاوِيلُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهُمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ، فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(٢).



(١) رواه مسلم (٢٢٦٣).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وصححه الألباني.



الفصل الثاني:

أغاليط في الابتسامة



الابتسامة السادسة عشرة: المداراة بالابتسامة!

الابتسامة في وجوه مَن لا يستحقها صدقة: قد ذكرنا من قبل أن الابتسامة مثل السلام، فالسلام على كل حالٍ؛ على مَن تعرف، ومَن لا تعرف أجر وحسنات.

عَنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيَّ وَيَذْكُرُونِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَعْلَمُكُمْ**» يَعْنِي بِهِ، قُلْتُ: صَدَقْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي: كُنْتَ شَرِيكِي فَنِعْمَ الشَّرِيكُ، كُنْتَ لَا تُدَارِي، وَلَا تُمَارِي[1].

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُدَارَاةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ**»[2].

قال المناوي: المداراة: الملاينة والملاطفة، وأصلها المخاتلة ومنه: الدّراية وهو العلم مع تكلّف وحيلة[3].

قال ابن بطّال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: المداراة: خفض الجناح للنّاس، ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول. وقال ابن حجر: المداراة الدّفع برفق[4].

هذه الابتسامة جواب على مَن ظن أن الابتسامة تكون في وجوه مَن لا يستحقها نفاقًا أو مخالفة للحقيقة، بل الابتسامة جزء من أصل أصيل عند المؤمن لا يستطيع

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٦)، وصححه الألباني.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٥٤)، وذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٩٦) وقال: رواه ابن حبان في صحيحه وهو حديث حسن.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (٣٠١).
(٤) الفتح (١٠/ ٥٢٨).

أن يتخلى عنه أبدًا.. وهذا الأصل هو الأخلاق، فالمداراة في الحديث الأول كانت مذمومة وذلك لاختلاف المعنى، فالمعنى في حديث السائب: كنت سهلًا هينًا لينًا، لا تخالف شريكك، ولا تشاغب على الآخرين، ولا تعقد الأمور، وأما المداراة فهي صدقة كالابتسامة لكنها هنا لتفويت مشاكل الأشرار، وتقليل النزاعات بالحكمة ودرئها كما في الحديث: عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ مَا قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَقَالَ: «**أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»[١].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّا لَنَكْشِرُ**[٢] **فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ**»[٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُهْدِيَتْ لَهُ أَقْبِيَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، مُزَرَّرَةٌ بِالذَّهَبِ، فَقَسَمَهَا فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَزَلَ مِنْهَا وَاحِدًا لِمَخْرَمَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَقَالَ: ادْعُهُ لِي، فَسَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ، فَأَخَذَ قَبَاءً فَتَلَقَّاهُ بِهِ، وَاسْتَقْبَلَهُ بِأَزْرَارِهِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا الْمِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**»، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ شِدَّةٌ[٤].

فلا يضيق أحد على الابتسامة وأمرها متسع.

وكم يحتقر الفظ الغليظ نفسه إذا لاقى مَن يجامله كما يجامل الطفل أو يجامله

(١) رواه البخاري (٦١٣١).

(٢) نكشر في وجوه أقوام: نبسم في وجوههم. يُقال: كشر عن أسنانه أبدى يكون ذلك في الضحك وغيره، والمقصود هنا الضحك بقرينة مقابلته بلعن القلوب.

(٣) ذكره البخاري معلقا موقوفا على أبي الدرداء. وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٤٤): وصله ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي في غريب الحديث والدينوري في المجالسة وأخرجه أبو نعيم في الحلية، فهو على شرطه إما حسن أو صحيح.

(٤) رواه البخاري (٣١٢٧).



كما يجامل الرجل العاقل الرجل السفيه! فكيف إذا ابتسم في وجهه من دون الناس الذين يواجهونه بما يستحق، وكم تُحَدِّثُهُ نفسه أن لو كان مثل هذا في خُلقه في محبة الناس له.. في صفاء نفسه.. في سعادته في بيته، ومع شركائه، ومع صحبه، ومجتمعه.

وكم رأينا من هؤلاء الأجلاف مَن ليَّنه حكيم هين ليِّن بحسن خلقه وإشراقة ابتسامته.. حتى أصبح عنده مثل السبع الذي روَّضه مدربه وسائسه، فأصبح الناس يعيرونه: لماذا خلقك مع فلان ذروة في الإنسانية، ومعنا على العكس من ذلك؟! ولو علموا أن ما هذا إلا بداية التحول... وسوف ينتصر على نفسه أول ما ترى الابتسامة المشرفة على وجهه - بإذن الله -. وصدق الله إذ قال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥،٣٤]، والتغيير الآن حدث في النفس ما ابتدأ في مثل الحالات إلا من خارج النفس من ابتسامة المقابل الصادقة، ووجهه السمح، ومبادرته بالسلام.

الابتسامة السابعة عشرة: ابتسامة المغضب:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قَالَ: «سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى

بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا، وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا، حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ،

تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْـمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَ**»، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «**مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟**» فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ، لَا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**»، فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْـمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْـمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْـمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ،

فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ، قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ

إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ: يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَلَّا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [التوبة:١١٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ [التوبة:٩٥] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦]. قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة:١١٨] وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ

اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ»[(١)].

لكل حالة ابتسامتها عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. فما هي ابتسامة المغضب، وما معانيها، وما رسائلها؟ فهذا صحابي كريم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أنه تخلَّف عن الغزو مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ دعاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكل صريح لا لبس فيه، وأَمَرَهم أمرًا صارمًا لا استثناء فيه لمَن لزمه الجهاد، وكان كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خاصة صحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنه تخلَّف من غير عذر... فكان العجب أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَذَرَ مَن اعتذر من المنافقين إلا أنه لم يعذر كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكعب فهم هذا جيدًا، لهذا كان هو مَن وصف وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الوصف المعبِّر الدقيق العميق الشامل للمراد؛ حيث قال: «**فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ**»[(٢)]، فإنك أنَّى نظرت إلى هذه الكلمة وجدتها نورًا حتى وإن بدا أنها مشربة بالغضب... ولقد أذكرتني هذه الكلمة ما ورد في الحديث قول الله عَزَّوَجَلَّ: «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[(٣)]، ولله المثل الأعلى، فهنا الموقف موقف غضب، لأنها كبيرة من أعظم الكبائر؛ إذ التخلف عن الجهاد من غير عذر من أفعال المنافقين... إلا أن الله سبحانه هو مَن فطر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما اختاره سبحانه لنفسه، ولذا سبقت ابتسامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضبه، وسبقت ابتسامته عبوسه، فأثبت الابتسامة أولًا..

فما استطاع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتمان ابتسامته.. وما استطاع إخفاءها.. إنه رحمة خالصة... وكيف يستطيع وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهذا اللين

(١) رواه البخاري (٤٤١٨).
(٢) رواه البخاري (٤٤١٨).
(٣) رواه البخاري (٧٤٥٣)، ومسلم (٢٧٥١).

هنا هو الذي تمثَّل بالابتسامة، وكان عاقبة تلك الابتسامة ابتسامة المغضب دلالات المحبة الفائضة مع بعض العتب، دلالات بقاء الثقة، فأرجوك أن لا تبتعد، دلالات الخصوصية لك يا كعب، فلا تكن مع هؤلاء المنافقين..

دلالات الرعاية العظمى لك مني فلا لصدق المخذِّلين لك على فعلك، ولا العارضين عليك الدنيا لفعلنا هذا معك.

فكما كانت [ابتسامة المغضب] كانت ابتسامة مشربة بشيء مما يكدِّر، فقد كانت كل أفعاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع كعب مثل هذه الابتسامة تحمل المعنيين المتضادين بنسبة كنسبة الدواء المركَّب من مواد متضادة، وفيه الشفاء، ولهذا كان كعب يقول في عاقبتها: «وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا»[(١)].

كانت هذه الابتسامة تبين المنهج القادم اتخاذه معك، فلتتهيأ ولتصبر، ففيه من الآلام لنفسك ما يكفي، وستضيق عليك الأرض بما رحبت.. ولذا ستجد كل موقف قادم يحمل رسالتين تفهمها نفسك تمام الفهم؛ «فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْـمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهْوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي»، أوجعك، لكن لا أدعك تفرُّ، أخيفك لكن لن أقطع طمعك فيَّ أبدًا، أشدك إليَّ، لكن لن أدعك تقترب كما كنت.. فإذا بلغ الألم مداه، وبلغ الثبات منتهاه، وضمنت بقاءك معي حتى المنتهى، أمرت بمقاطعتك حتى من أهلك.. لتبلغ التربية مبلغًا لا يعلمه إلا الله.. ويبلغ الضيق منتهاه.. هنا انفجر الصباح بالبشرى «أَبْشِرْ».

(١) رواه البخاري (٣٨٨٩).

الابتسامة الثامنة عشرة: الميزان؛ قلة الضحك وكثرة الابتسام:

خُيِّل للبعض أن الواجب تقييد الابتسامة بأشد القيود، ويقيدها البعض مع إخوانه في الإسلام بقيود عقدية معقدة، وحدود في الإنكار ما أنزل الله بها من سلطان، مع أنك تجده مع آخرين يقهقه حتى الثمالة.

نعم؛ إن بعض الفاجرين المجاهرين لا يزدادون بالضحك في وجوههم إلا فجورًا وإصرارًا! نعم؛ إن هذا حق.. وقد كنا نكثر من فعل هذا النوع من الإنكار.. والله يتقبل، ولكن ربما جاء رجل واسع الصدر جميل المحيَّا منير الابتسامة وجلس معه وزامله، فإذا به عاد، بينما كان منا يبتعد ويبتعد، وهذا يحدث كثيرًا، فلما رجعنا إلى هذا الأسلوب المتكامل وجدنا الصدور تفتح بالابتسام أولًا والحلم والأناة، وصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»[(١)]، وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[(٢)].

وخُيِّلَ للبعض أن ترك كثرة الابتسام كترك كثرة الضحك فهو لا يبتسم للناس إلا نادرًا، ولا يفعل ذلك إلا نادرًا، وما علم هذا وأمثاله أن كثرة الضحك مخالف لهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، بينما سنته كثرة التبسم تمامًا كما هو الشأن في كثرة التصدق، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ**

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).
(٢) رواه مسلم (٥٣٧).

صَدَقَةٌ»(١)، وفي حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**وَكَانَ لَا يَرَانِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي**»(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٣).

إن كثرة الضحك عادة ما تكون من غفلة القلب، وكثرة التبسم عادة ما تكون من يقظة القلب، إن كثرة الضحك تضر بالصحبة وحسن المعشر.. إذ لابد أن تذهب صحبة بعض الأصحاب ضحية للضحك، بينما الابتسامة رسالة ألفة وسقاء محبة؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا، حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ**، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا، أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَى النَّاسَ، إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ، فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ، عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]»(٤).

كثرة الضحك أقرب إلى السخرية منها إلى الجدية، بينما التبسم جامع ما بين السهولة والجد، واللين والحزم، ثم المرء أخشى ما يخشاه أن يعلم بسرِّه أو ضعفه ضحوك، ولو كان جليسه وأنيسه، بينما يذهب بنفسه إلى صاحب الوجه الباسم من بين صحبه يكشف له كربه، ويظهر سرِّه وما أضره.

كَثِيرُ الضحك إنما يريد نفسه يؤنسها ويعليها على حساب نفوس آخرين يهدمها، أو يريد تسميع صحبه بما يُضْحِك ليشهر نفسه، أو يقدِّمها، بينما صاحب الابتسامة

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٦٨٧)، وقال: ولَه شاهِدٌ مِن حَديثِ الشَّعبِيِّ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرسَلًا.
(٣) رواه الترمذي (٣٦٤١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.
(٤) رواه مسلم (٨٩٩).

إنما يريد وجه الله سبحانه، لأن التبسم صدقة وعبادة، وهو لابد أن يحسن في عبادته لله، ثم إنه لابد أن يحسن في ابتسامته لمن يقابله ولا يؤذيه، كما يحسن في أداء صدقته لمن يؤدي له الصدقة.

كثرة الضحك أقرب ما تكون للهرج واللغو وسقط الحديث ورخيص المجالس والمجامع... بينما الابتسامة نور يشرق في المجلس كإشراق الجوهرة إذا سُلِّط عليها الضوء، أليس ثغر الإنسان أعظم ما يكون إشراقًا إذا فتح ثغره فبدت أنوار أطراف الأسنان لبعض الأسنان.. فما أبهاها وما أبهى الوجه الذي انبسط بها وانبثقت منه أنوارها.

ما أبعد كثرة الضحك عن الاتزان وأقربها إلى الشطط والغلط... وما أكثر ما يلجأ كثير الضحك والإضحاك إلى التكلف في ضحكته وفي المبالغة بأسباب ضحكته حتى تخرج عن المألوف إلى المتكلف، المموج الذي تعافه الفطرة والأسماع السليمة.

بينما ما أقرب التبسم إلى الفطرة والإسلام دين الفطرة، فالتبسم يحسن كل إنسان حتى لو كان أخرس، أو كان ذا عاهة، بل حتى لو لم يكن يتكلم بلغة الآخرين الحاضرين.. ثم إن الابتسامة لا تحتاج إلى ترجمة أبدًا، لأنها نور يسري من العين إلى القلب مباشرة... ومَن وصل إلى القلب فقد وصل.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ؛ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ**»[١].

(١) رواه مسلم (١٩٠).



الابتسامة التاسعة عشرة: البخل بالابتسامة على الأهل للمحافظة على المهابة!

خُيِّلَ للبعض أن الابتسامة قلة في المهابة: ولذلك فهذا الصنف من الناس يتحاشاها مع أهله وفي تربيته لفرض توقيره..!

إذًا فإن العبوس والتجهم عندهم هو البديل..

ولو كان الأمر كذلك ما كانت الابتسامة صدقة..

ومن أولى الناس بالصدقة إن لم يكن الأهل.. بل الصدقة على الأهل بصدقتين، للابتسامة هنا من الأجر الضعف، وهي مطلوبة منا ضعف ما نبتسم عند الآخرين.. ولهذا فإن الابتسامة هنا تجديد للحياة لأن خير الابتسامة لا ينقطع، ولأن الحياة هنا هي أطول وأكثر، وخلافاتها ربما تكون أكثر لأكثرية الاحتكاك، فاحتاج الإنسان أن يتقي المشاكل والخلافات بالابتسامة، كما احتاج أن يعالج آثار ذلك بالابتسامة يدري ولا يدري، وإن الابتسامة الحقة لهي عنوان الشخصية القوية المهيبة، وعظم جمالها على هذا الوجه العابد الخائف من ربه، فإن مَن ينظر إلى حال الأب، أو الأخ الأكبر، أو الجد، أو العابد في العائلة في صلاته، أو عند قراءته القرآن العظيم، أو ذكره لربه، ويرى ما يطرأ على حاله من السكينة، وما يتجلى عليه من الخوف من الله وذبول الوجه، وربما ما يصاحب ذلك من بكاء، أو أنين وهو في صلاته ودعواته، هذا وهو يرقب ذلك هذا الحال المهاب، والبنت ترقب ذلك، والزوجة ترقب ذلك... ثم هم يرون تصرفاته في البيت بعد ذلك والابتسامة ملازمة له كلما دخل البيت، وكلما أراد الخروج، وكلما دخل عليهم ودخلوا عليه... إنها الابتسامة التي تشرق على وجهه العابد أكثر من أي وجه آخر، ذلك أن العبادة أُوقدت أنوارها أضعافًا مضاعفة على وجهه، ومنحتها من قوة التأثير وعظمة المهابة ما لا يحصى، ثم إن الابتسامة منحت هذه الشخصية من الجاذبية بحيث يودُّ كل واحدٍ صغيرًا في البيت كان أو كبيرًا أن ينطوي تحت جناحه.. فهو ودٌّ غير أي ودٍّ، وهو رحمة وعطف وحنان حين تقرن العبادة الابتسامة.. ذلك أن هذا هو من الميزان.

ثم كيف يكون ترك الابتسامة مهابة وسنة رسول الله ﷺ في أهله الابتسامة كلما دخل أو خرج؛

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ فَقَالَ: **«أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا نَظَرَ آنِفًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»**[(١)].

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ: أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ: **«عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ»**، فَقَالَ: أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِنَّ فَقَالَ: يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ، أَتَهَبْنَنِي وَلَمْ تَهَبْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَ: إِنَّكَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»**[(٢)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً قَالَ أَنَسٌ: فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[(٣)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيَّ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَبَتَّ طَلَاقَهَا[(٤)] فَتَزَوَّجَهَا بَعْدَهُ

(١) رواه البخاري – الفتح ١٢ (٦٧٧٠) واللفظ له، ومسلم (١٤٥٩).
(٢) رواه البخاري (٦٠٨٥).
(٣) رواه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧).
(٤) فبت طلاقها: طلقها من غير رجعة.



عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزَّبِيرِ، فَجَاءَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَهَا آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، فَتَزَوَّجَهَا بَعْدَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزَّبِيرِ، وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا مَعَهُ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا مِثْلُ هَذِهِ الْهُدْبَةِ، لِهُدْبَةٍ أَخَذَتْهَا مِنْ جِلْبَابِهَا، قَالَ وَأَبُو بَكْرٍ جَالِسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَابْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ بِبَابِ الْحُجْرَةِ لِيُؤْذَنَ لَهُ، فَطَفِقَ خَالِدٌ يُنَادِي أَبَا بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَا تَزْجُرُ هَذِهِ عَمَّا تَجْهَرُ بِهِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يَزِيدُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّبَسُّمِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**»(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ، فَرَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَاشَةَ الْعُرْسِ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ»(٢).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**». فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»(٣).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَصْبَحْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ صَائِمَتَيْنِ، فَأُهْدِيَ لَنَا طَعَامٌ، وَالطَّعَامُ مَحْرُوصٌ عَلَيْهِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، وَدَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَابْتَدَرَتْنِي حَفْصَةُ، وَكَانَتْ بِنْتَ أَبِيهَا، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ: أَصْبَحْنَا صَائِمَتَيْنِ، فَأُهْدِيَ لَنَا طَعَامٌ، **فَأَكَلْنَا مِنْهُ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَقَالَ**: «**صُومَا يَوْمًا مَكَانَهُ**»(٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ جَاءَهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨٤).
(٢) رواه البخاري (٥١٤٨)، ومسلم (١٤٢٧).
(٣) رواه أحمد (٢٦٢٧٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده جيد.
(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨٣٦٦).

رَجُلٌ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكْتُ، قَالَ: مَا لَكَ، قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**»، قَالَ: لَا، فَقَالَ: «**فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا**»، قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَكُثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ، وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ، قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ**»، فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: «**خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ**»، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. **فَضَحِكَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ**[(١)].

كيف وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله من الهم والحزن؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهَا كَانَتْ تَأْمُرُ بِالتَّلْبِينِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمَحْزُونِ عَلَى الْهَالِكِ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ التَّلْبِينَةَ تُجِمُّ فُؤَادَ الْمَرِيضِ وَتَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ**»[(٢)].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[(٣)].

وهذا الحديث ليس في الترغيب في الهم والحزن - معاذ الله -، بل هو للتخفيف على كل مهموم ومحزون، وإلا فأي فرح بالشوكة تثقب جلده وتخلص إلى لحمه، وأي سعادة تدخل صدره بالأذى والغم والحزن.. فهذا حديث يدخل الرضا على العبد المصاب، وهذا هو الأساس، وهو المطلوب، حتى لو لم يبلغ به الابتسامة، فإن حقيقة الابتسامة في داخله.

كيف لا يكون حال الرجل في البيت ومع النساء والعيال ابتسام والبيت هو موطن المودة من رب العالمين، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

(١) رواه البخاري (١٩٣٦).
(٢) رواه البخاري (٥٦٨٩).
(٣) رواه البخاري - الفتح ١٠ (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).



لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، وبما أن الرجل قوَّام فإنه يحتاج إلى الرحمة أكثر... وإلى اللطف والحنان مع الابتسام أكثر... وذلك ليرقق قوة القوامة وخشونة الأمر والنهي، ولتخفف الابتسامة الحياة واحتكاكاتها الشديدة وتوسِّع ضيقها أكثر، وتحبب في الاجتماع الأسري أكثر وأكثر، ولتذهب عناء الحياة وتهون شدائدها.

بل هنا يشرع السلام مع الابتسام كلما دخل هو سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أجملها وأعظمها وأعظم أثرهما إذا اجتمعا؛ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ، فَسَلِّمْ، يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**»(١).

فإن الأهل أحق بالسلام كما هم أحق بالابتسام لأنهم أحق بالصدقة، وأجرها ضعف الصدقة على سواهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»(٢).

فمن أولى المعارف إلا الأهل!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(٣): فإن لم تكونوا متحابين بما فيه الكفاية فعليكم بالسلام والابتسام، وإن أردتم المحبة أكثر وأكثر حتى بلوغ المودة بإذن الله فعليكم بالابتسام والسلام، وإن أردتم دخول الجنات والاجتماع هنا في بيوت وقصور فعليكم بأداء حق الاجتماع هنا أولًا.

(١) رواه الترمذي (٢٦٩٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٢) رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).
(٣) رواه مسلم (٥٤).



وإن أردتم الوقاية من أخطر الأمراض المفرقة بين الأحبة فعليكم بالسلام والابتسام؛ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ وَهِيَ الْحَالِقَةُ، لَيْسَ حَالِقَةَ الشَّعْرِ لَكِنْ حَالِقَةَ الدِّينِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ - أَظُنُّهُ بِمَا يُثْبِتُ لَكُمْ - أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(١).

ومَن أراد الهيبة والعلو له ولأمته فعليه بالسلام؛ فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْشُوا السَّلَامَ كَيْ تَعْلُوا**»(٢)، وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ**»(٣)، وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلَانِ يَلْتَقِيَانِ أَيُّهُمَا يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ فَقَالَ: «**أَوْلَاهُمَا**»(٤)، السلام المزين بالابتسام الخارج من التواضع، ومن تواضع لله رفعه الله.

بل إن الإنسان لا يترك السلام حتى في المجلس الذي اعتاد الناس الاجتماع فيه بالبيت، فإذا ما دخل ولم يجد أحدًا من الناس ألقى السلام، وإذا دخل ولم يجد إلا مَن يصلي سلَّم كما فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين كانوا يدخلون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلي في الكعبة يُسلِّمون؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قُلْتُ لِبِلَالٍ: كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: كَانَ يُشِيرُ بِيَدِهِ»(٥)، وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَرَرْتُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ إِلَيَّ إِشَارَةً»، وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: إِشَارَةً بِإِصْبَعِهِ(٦)، فما نهاهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِنْ**

---

(١) مسند البزار (٢٢٣٢)، وقال الألباني: حسن لغيره.
(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن كما في صحيح الترغيب والترهيب للمنذري (٣/ ٢٥) رقم (٢٧٠١).
(٣) رواه أبو داود (٥١٩٧)، وصححه الألباني.
(٤) رواه الترمذي (٢٦٩٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.
(٥) رواه الترمذي (٣٦٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٦) رواه الترمذي (٣٦٧)، واللفظ له، وأخرجه أبو داود (٩٢٥)، والنسائي (١١٨٦) باختلاف يسير، وصححه الألباني.



بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ، فَلَيْسَتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ»(١)، نعم، إن الأصل أن يكون في المجلس أناس ولكن يوافق أحيانًا أن لا يكون فيه أحد من الناس، وأحيانًا يكون الداخل هذا هو أول الداخلين فالحديث يصدق عليه، وكم نحتاج إلى تعليم الأهل والخدم إشاعة السلام في البيت حيث أصبح السلام اليوم غريبًا، بل أصبح الأبناء في البيوت لا يسلِّم بعضهم على بعض في البيوت، وإن سلموا فبغير تحية الإسلام.. والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ، وَأَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ»(٢)، وكيف نرجو السلام في بيوتنا وبيننا وبين بعضنا ونحن لا نشيع السلام كما أمر المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالسلام في البيوت أصبح في غربة، والابتسامة بين الأبناء كذلك في غربة، وإن هؤلاء الأبناء هم الرجال المربون غدًا... فهل سيتحولون غدًا إلى مربيين فجأة دون أن يتربوا عمليًّا ويتدرجوا شيئًا فشيئًا.

الابتسامة العشرون: رهن الابتسامة بالقدرة على الصدقة!

لا ينبغي ربط الابتسامة بالقدرة على الصدقة، فإنها هي بذاتها صدقة، فإن بعض الكرام يخشى من لقاء فقيرٍ أو محتاجٍ أو صاحب مشروعٍ لأنه في حالٍ لا يحمل مالًا، أو لأنه لا يملك شيئًا من المال.. فهذا الكريم يستحي أن يرد الناس، لذا يلجأ إلى الفرار منهم كراهية لردهم وحياءً منهم.

والحقيقة أن الحياء شعبة من الإيمان، لكن الأفضل في هذا المقام هو لقاء الناس وعدم الاختفاء، لئلا يختفي المعروف باختفاء رجاله، وتختفي الصدقة كليًّا والابتسامة موجودة، فإنها عند الله صدقة، وبهذا تتحول الوجوه بعد ذلك عابسة في وجه المحتاجين، رادةً له بقولٍ غير معروف، وبالأذى، وتصبح الصدقة في وجوه

(١) رواه الترمذي (٢٧٠٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.
(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٦) رقم (١٧١٩٥): رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى مَوْقُوفًا فِي آخِرِ حَدِيثٍ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

المحتاجين عزيزة، نعم، ربما لا تغنيه شيئًا، ولكنها صدقة، ولعل الله سبحانه يبارك هذه الصدقة فيخرج منها صدقات حقيقية، إذ منطلقها هو الإيمان بالله تعالى، وبما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمؤمن يتمنَّى لو أن الله رزقه ليعطي هذا وأمثاله، ويقيم هذا المشروع وأمثاله، وفي الحديث عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ، يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ**[1] **فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ عِلْمًا، وَلَا مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**»[2]، ثم إن هذا الفقير وأمثاله محتاج حقيقة لهذه الابتسامة؛ إنه إنسان، وإنه مشاعر، وإن هذه الابتسامة عزاء له ورحمة ونسمة وسط لهيب المادة الحارق، وبخارها الخانق، ولذا فإن هذا المحتاج عادة ما يلتجئ إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ ويتمنى عليه أن يرزق صاحب الابتسامة هذا وصاحب اللطف في خُلُقه الرزق الواسع كي يعطيه هو ويعطي أمثاله فيستجيب الله له، ولربما - ولبركة الابتسامة - فإن هذا الرجل المحتاج يدلك يا صاحب الابتسامة على فكرة من هنا وأخرى من هناك، أو تستفتح من أفكاره فكرة منقذة له هي أعظم من صدقة لحظة لأنها أفكار من الميدان، أفكار العناء والمعاناة..؛ كأن يدلك على حاجته، وحاجته إنما هي في عمل دائم، ولربما كان العمل عند فلان موجود وما يحتاج هو إلا إلى شفاعة، أو يكون طلبه إقامة مشروع خيري ويدلك على أن إقامة مشروعه الخيري أو مسجده الجامع عند فلان صاحب خيرات معروف، أو عند الجمعية الخيرية الفلانية، وأنت تستطيع الوصول إليها، أو إلى ذاك الغني، وربما استكثرت المشروع واستعظمته فاقترح عليك أن تقسم المشروع إلى أسهم،



(١) فهو يخبط في ماله: أي يجري فيه من غير هدى ويصرفه في الباطل.
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني.



وقمت أنت وأربعة أشخاص، أو عشرون آخرون من صحبك تقتسم أسهمه وإقامته ورعايته ومتابعته، وكل ذلك ببركة الابتسامة وإنها لصدقة تولِّد منها صدقات، ثم لا ينبغي لأحدٍ أن يخرج من قليل الصدقة الذي لا يحمل سواه، أو يؤجله صادقًا.. فإن الصدقة القليلة صدقة مُصَدِّقة لصدق الابتسامة وإنها لصدقة، وإنها شاهد ليس للفقير، بل لله أولًا وآخرًا وكفى بالله شهيدًا، وإنها لتسجيل في سجل ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وفي سجل ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وفي سجل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

فإن الابتسامة الصادقة هي ابتسامة الفطرة والنقاء، وابتسامة النية الطيبة، هي الابتسامة التي يدعو صاحبها الله سبحانه أن يمكنه الله من تحقيقها على وجوه البائسين وعلى حياة المدينين، ولمِّ شمل المشتتين، وإكرام المظلومين المقهورين، وإغناء الفقراء والمساكين، وكفالة الدعاة إلى الله، وحفظة القرآن وعلومه والمدارس والمعلمين، وهذا ميدان لا حدَّ له، والحمد لله رب العالمين.

الابتسامة الحادية والعشرون: الاستقبال بابتسامة دون ابتسامة الوداع!

للابتسامة عند الاستقبال تعبير مؤثر يمتد تأثيره أكثر من لحظته، فالإنسان لا يضمن تغيُّر صاحبه بعد الغياب عن صاحبه، وعلى الأخص إن كان غيابه سفرًا، لذا فإنه يحاول أن يستقرئ وجه صاحبه وثباته على العهد... أو تغيره من خلال النظرة الأولى إلى وجهه وعينيه، ومركز ذلك والناطق الأول هو التبسم، ونوعيته، ومقداره، وما إلى ذلك من قراءات تدل على نفس صاحبها... ولا يقفز شيء إلى الذاكرة قبل حسن الظن، وأن الرجل على العهد.. وأما الظن الآخر فهو استثناء لا يمكن الأخذ به إلا بعد قرائن ثم تيقن.

وما يقطع بخطأ الظنون ووساوس الشياطين إلا ابتسامة الاستقبال وما يرافقها من سلام وكلمات طيبة، وهذه سنة من سنن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأُدْخِلْنَا الْـمَدِينَةَ ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ»[1].

ومَن نظر في قصة توبة الله على أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى أثر الاستقبال الأول باقيًا في حياة أُبي لم ينسه حياته.. كما رأى وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكريم لم يفارقه أبدًا حتى موته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: «لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْـمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. الحديث.. وفيه: فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. قَالَ: فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ، وَيَقُولُونَ: لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْـمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْـمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي، وَهَنَّأَنِي وَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ: **فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ**

(١) رواه مسلم (٢٤٢٨).



وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: وَيَقُولُ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، قَالَ: فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ فَقَالَ: «لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ» وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ»[1].

ولهذا فإن الأمر لا يقتصر على القدوم من سفر.. بل السفر هو أصل في الغياب وما في معناه... والمؤمن يحرص أعظم الحرص على أن لا يفوته حضور هذه الفرصة، فإن الابتسامة صدقة، وكل صدقة بقدرها وقدر حاجة الآخر لها، فهو يحرص على أن يكون مع أول ركبٍ يستقبل حبيبه أو صديقه أو قريبه، ليكون استقباله له مثلًا حسنًا عند دخول البلد، كما يكون من آخر من يودعه لتبقى أثر ابتسامته حيًّا إلى أن يعود.

وإذا ما أدخل المريض لعملية جراحية فلتكن ابتسامتك آخر ما تغمض عليه عين والدك، أو ولدك، أو زوجتك، أو قريبك، أو حبيبك، قبيل أن يدخل في عالم التخدير للعملية.. ولتكن كذلك صورتك وصوتك وابتسامتك هي أول ما يفيق عليه، ذلك أن هذه خير، وهذا الحضور سباق، والله سبحانه قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، وربنا يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ومن طلب مقام القدوة لم يسعه أن يتأخر عن المتقدمين وهكذا في كل مجامع الخير.

الابتسامة الثانية والعشرون: الابتسامة مع شرار الخَلْق!

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: «ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ» أَوْ «بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ»، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ مَا قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَقَالَ: «أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»[2].

---

(١) رواه البخاري - الفتح ٧ (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.
(٢) رواه البخاري (٦١٣١).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّا لَنَكْشِرُ**[(١)] **فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ**»[(٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُهْدِيَتْ لَهُ أَقْبِيَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، مُزَرَّرَةٌ بِالذَّهَبِ، فَقَسَمَهَا فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَزَلَ مِنْهَا وَاحِدًا لِمَخْرَمَةَ ابْنِ نَوْفَلٍ، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَقَالَ: ادْعُهُ لِي، فَسَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ، فَأَخَذَ قَبَاءً فَتَلَقَّاهُ بِهِ، وَاسْتَقْبَلَهُ بِأَزْرَارِهِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا الْمِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ شِدَّةٌ**»[(٣)].

وهذه الابتسامة وهذا النوع من الاستقبال صدقة من جميع الجهات حتى على صاحب الخلق الأسوأ، لأنك منعت بالابتسامة والمداراة هذا من أن يفحش أو يتفحش، فأنت صرفت منكرًا، وهو خير من أن تتركه يولد ثم تنكره، وهي خير من أن تتركه يسيء لنفسه ويسيء لغيره، والصدقة كما تكون عطاءً فإنها تكون دفع سوء، وهذا والله من عجائب عظمة الابتسامة وكونها صدقة.

وهذه صدقة لما فيها من إحسان خفي، وإحسان دائم وملازم، ولأن فيها حفظًا لمال المسلم وعقله، والمداراة فيها صرف للشرير بالحكمة وعدم مواجهته كما تواجه غيره رغم فُحشه وبذاءته، والمواجهة مع هؤلاء تهدر الخير والخلق والحب كثيرًا كثيرًا، وتضيع من الأوقات كثيرًا، وبمواجهتهم سوف يسود الفحش والتفحش.

الابتسامة الثالثة والعشرون: الابتسام أم الضحك في الآخرة؟!

لِمَ ثبت الضحك وأنواع الفرح المنشور في الآخرة ولم يثبت الابتسام.. بينما على العكس فإن ثبوت الابتسام سنة في هذه الدنيا بخلاف الضحك، لأن الضحك

(١) نكشر في وجوه أقوام: نبسم في وجوههم. يُقال: كشر عن أسنانه أبدى يكون ذلك في الضحك وغيره، والمقصود هنا الضحك بقرينة مقابلته بلعن القلوب.
(٢) ذكره البخاري معلقا موقوفا على أبي الدرداء. وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٤٤): وصله ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي في غريب الحديث والدينوري في المجالسة وأخرجه أبو نعيم في الحلية، فهو على شرطه إما حسن أو صحيح.
(٣) رواه البخاري (٣١٢٧).

مع القهقهة والفجور في الفرح العظيم لا يليق بالدنيا، ولا يليق بالدنيا إلا التبسم، كما لا يليق بالمؤمنين في الآخرة إلا الضحك، فهناك ذروة الفرح ومطلق السرور، وأما في هذه الدنيا فمهما كانت البشرى في حياة الإنسان فهي ليست البشرى الأخيرة فبعدها حياة وعمر، وبعدها ما لا يعلمه صاحبه ولا يأمن على نفسه، فهو لا يزال في ساحة الاختبار... فالخاتمة وما أدراك ما الخاتمة..

أما هناك فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، هذا هو العبور على الصراط المضروب على ظهر جهنم، وهذا من أصعب مواقف الآخرة فإن السلامة من جهنم ووصول برِّ الجنة ليست لحظة عادية أو يومًا عاديًّا أو فرحة عادية، حتى تكفي فيه الابتسامة؟! إنه انفجار الفرح الأعظم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]، قَالَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، حَتَّى يُوقَفَ عَلَى السُّورِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ، فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ قَضَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحَيَاةَ وَالْبَقَاءَ لَمَاتُوا فَرَحًا، وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ قَضَى لِأَهْلِ النَّارِ الْحَيَاةَ فِيهَا وَالْبَقَاءَ لَمَاتُوا تَرَحًا»(١).

فمَن يَبْلُغ هذه البلاغة النبوية.. فالآن علموا أنه حُكْم الخلود.. إذًا فهي فرحة الخلود وليست فرحة موقف ربمًا يقطعها المرض وإلا فيقطعها الموت.. فماذا وقد ذبح الموت.. فلا شيء يقطع الفرح.. ولا شيء يقطع الأحزان، فاللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.. اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.. اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

(١) رواه الترمذي (٣١٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩].

وقال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩،١٧٠].

وقال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦].

وقال سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٦٨-٧٠].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٤-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

الابتسامة الرابعة والعشرون: أفضل الأعمال إعادة الابتسامة لمفتقديها، وأفضل الرجال رجالها ودعاتها:

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثَبِّتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ**»(١)، كل على قدر استطاعته فالسرور الذي يستطيعه المسلم.. والذي يستطيعه الوالي.. والذي يستطيعه الخليفة، ولذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أعظم الناس خوفًا من حزنٍ يدخل بيت مسلم ولا يهدأ حتى يرفعه.

هنا تتجلى عظمة الابتسامة، وأنها جماع الخير.. كما تتجلى عظمة الرجال المؤمنين وأن مقاماتهم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وعند رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحسب النفع للناس وإدخال السرور عليهم، وإن شئت قلت: بحسب نشرهم الابتسامة في أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتدبر هذا السؤال العظيم: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ**»، والسرور ربما كان من إهداء، أو خبر سعيد، أو كشف ضرورة، أو أي خير يجلب للمسلم يجعله ينتقل من حاله إلى حال سرور.. هكذا بشكل عام وهذا يدل على عظمة إدخال السرور أيًّا كان السرور، فالسرور بالسرور، والسرور لهذه الأمة حق، وهو لشرع الله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غاية.. فلا شيء أغلى من إسعاد أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شيء يحزنه مثل حزن بيتٍ في أمته.

ولذا إذا جئنا لجميع الحالات القادمِ ذكرها في الحديث فسوف نجدها متخصصة بإعادة الابتسامة وإدخال السرور والسعادة لمن افتقد السرور والسعادة، ومظهر ذلك وشارته هي الابتسامة؛ وقبل أن تنظر في كل واحدة منها على حدة لا بد أن نلتفت إلى حقيقة أن السرور غاية، وأن الابتسامة هي أجلى مظاهره، وأن مَن يزعم أن المهم هو فعل الخير من غير أن يثمر سرورًا وسعادة فهذه مادية لا قيمة لها، ومثالية لا مكان لها في الإسلام؛ فالمؤمن ليس موضوعه موضوع بهائم يُرمى لهم علف ويأخذ منهم

(١) رواه الطبراني في الصغير (٨٦١)، وصححه الألباني.

الحليب، ثم يأخذ منهم اللحم بعد الذبح.. إنه الإنسانية والإنسانية إنما هي مشاعر، والسعادة هي ذروة المشاعر المطلوبة.

ألم تنتبه إلى مَن روى هذا الحديث لأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ألا ما أجمل ما رواه عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رجل فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فسبحان مَن جمع هذين السؤالين العظيمين في حديث واحد.. وسبحان من جعل السائل في هذا الحديث رجلٌ لا يُعْرف ليشير إلى أن العمل الصالح المتعدي فعله للآخرين لا يُشترط أن يُعرف، وليبين أن الأصل شيوع العمل النافع المتعدي نفعه للناس... ويكفي أن يكون السائل رجلًا لا يُعرف، وهو الحديث الذي هو من أشمل أصول الأحاديث المؤصلة والمفصلة للعمل المتعدي نفعه للآخرين...

وسبحان الله: كيف جعل راوي هذا الحديث، ومبلِّغَهُ الأمة إنما هو أعظم مَن عمل به على الإطلاق بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وذلك هو الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عمر بن الخطاب؛ فكل شيء هنا بحسبان؛ حديثٌ كان مثاله الأعظم في العمل به هو راويه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. هو مَن جعله منهج حياته ومنهج خلافته، وما كان لعمر من همٍّ مثل أن يفرِّج حزن مسلم، أو حزن أسرة مسلمة، فإذا رجعنا إلى الحديث وجدنا جواب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ**»، فإن النفع للناس كافة طبع عند المسلم فهؤلاء إخوانه في الأب الأكبر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وأن نفعهم نفع أخوة كأخوته الأشقاء لو كان منهم كافرون... فطبع النفع للناس طبع في المسلم.. فكيف إذا كان خليفة للمسلمين.. وغير المسلم سروره فيما ينفعه، فالأصل عنده النفع المادي، أما إدخال السرور فهو أوسع معنى من النفع، فإن المسلم يسرُّه الزيارة، والصلة، ويسره كل ما فيه مرضاة الله، فالخير بشقيه للمسلم، وأما غير المسلم فالدنيا هي همه، ثم لو أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر [سرور تدخله على الإنسان] لدخل فيه إهداء محرم مثل الخمرة، ولحم الميتة، ولحم الخنزير، والطرب لغير المسلم، لأن هذا يدخل عليه السرور، وحاشا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقصد هذا.



الفصل الثالث:

الختام بالابتسامة الجامعة

ابتسامة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأخيرة



أنوار الابتسامة الخاتمة لن تنطفئ أبدًا:

أولًا: لم تكن طلعة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه محض صدفة... بل كانت هذه الإطلالة العظمى على الوجود إلى يوم القيامة.. هي القدر المقدور.. ومعقِد الحكمة والحكم.. وفاصلة الفواصل، وواصلة الفواصل.. بحور الحكم الزاخرة.. ومعقد المعاقد ما بين الدنيا والآخرة، أنا واثق تمام الثقة أن كل ما نأتي به من حكم لهذه الابتسامة هنا لا يتجاوز ما فعله ذاك العصفور الصغير أمام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ومما ورد فيه: «فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ»(١).

فهذا المطلع بكل تفاصيله القريبة الظاهرة والبعيدة العميقة الزاخرة مقصود الحكمة.. ممدود على مدى الزمان العلم والنور، فلقد انطلقت حياة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أولها من إطلالة على هذا العالم من غارٍ في أعلى جبل.. وكان ذلك هو غار حراء، وهناك أشرق النور الأعظم من رب السماوات على الأرض بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

(١) رواه البخاري (١٢٢).

ومنذ ذلك اليوم ورسول الله ﷺ يحرث ويغرس في كل ميدان.. لكل العصور.. لكل الأمم.. حتى جاء هذا اليوم.. وجاء هذا الموقف الخاتم.. أفترى هذا الموقف حدث اتفاقًا وصدفة.. أم اجتهادًا يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ..

ليس الموقف الخاتم هذا بأقل عظمة من الموقف الأخير.. لقد جاء الموقف الأخير لتسليم الراية العظمى ليبقى هذا الدين الأعظم من علوٍّ إلى أعلى حتى تقوم الساعة.

ثم إن هذا الموقف - كما سنراه بإذن الله - قد جمع كل ما سبق في هذه اللُّحَيْظَة واللطيفة والإطلالة الخفيفة.. وأنا والله لا أعدها إلا معجزة عظمى لا تليق بأحد، ولا يليق لها أحد، ولا تصدر من أحدٍ إلا من رسول الله ﷺ، فلنتهيأ لها.. فإنها تستحق التهيؤ والاستعداد، وإنها حسب علمي وبحثي لم أَرَ مَن خصَّها ببحث مستقل فيه حكمها مفصَّلة بشكل مستقل، ولهذا فقد استحسنت أن أُسمِّها [الابتسامة الجامعة]، لأنها لم تحدث من قبل، ولن تتكرر أبدًا، وجامعة لأنها جامعة لشرع الله - كما سترى -، والجامعة لأنها تجمع ولا تفرِّق أفرادًا وأُسرًا ومجتمعات، ولأنها عنوان زوال الخلافات والخصومات من الأمة وعودة أُلفتها بإذن الله.

ثانيًا: الفهم الواصل بصدق معايشة المشهد:

هذا الحديث على الأخص لا يمكن فهمه بغير معايشته ومعايشة تلك الأيام العصيبة.. بل تلك الساعات الأليمة ولحظات الانتظار الحزينة، فكل منتظرٍ هنا من الصحابة فيها فَدَاه بنفسه وأهله والناس أجمعين، وودَّ لو أن الموت نزل فيه وفي ذريته، وأن رسول الله ﷺ لم تمسه شوكة، فضلًا من أن يسمع اليوم خبر موت سيد البشر رسول الله ﷺ، بل لا يستطيع المنتظر أن يسأل عن حال رسول الله ﷺ سؤالًا، وإن كان سؤال في قلب كل مسلم إلا أنه يخشى أشد الخشية أن يتلفظ به فيكون القدر منوطًا بنطقه.. فيعود ليسأل: رسول الله ﷺ بخير؟! كيف هو رسول الله ﷺ؟!

المرض يتصاعد.. وانقطاع رسول الله ﷺ عنهم رضي الله عنهم قد استمر وزاد ويزداد.. والساعةُ بِسَنَةٍ وزيادة، وعلى قدر المحبة يكون التخوف والإشفاق، كيف بمَن اجتمعت محبته في نفس كل صحابي كمحبة جميع الآباء والأبناء والأحباب والناس أجمعين... فبهذا القدر من التخوف من موت رسول الله ﷺ كان مبلغ التخوف في نفس كل صحابي..! وا خشيتاه أن يكون لا لقاء بعد هذا مع رسول الله ﷺ.. ولا رؤياه بعد غيبته في بيته هذه المرة حيًّا أبدًا أبدًا!

الله أكبر؛ ما أصعبه من حال.. حتى وَصْفَه على الورق يثور وجعًا وآهات ونحيبًا... إشفاقًا - لا حدَّ له - على أغلى حبيب، والخوف قد بلغ بهم مبلغ الذهول: أيعقل أن نسمع الآن الخبر.. أنفيق حقيقة على الناعي.. أيمكن أن نشيَّع رسول الله ﷺ وكل واحد منا يُودُّ لو أن رسول الله ﷺ صلى عليه صلاة الجنازة لا أن يصلي هو على رسول الله ﷺ..! لا.. لا.. ليست هذه إلا أوهام؛ رسول الله بخير وسيخرج.. وسيعود.. وسيعيد الفتوحات وسيقودها إلى خارج جزيرة العرب إلى الدنيا كلها..

القلوب نحو حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ترقب أي حركة أي صوت.. كل رجل في المسجد يقول لنفسه: صهٍ.. خشية أن يشوش على سمعه نَفَسُهُ... كل هذا وأضعاف هذا من حقيقة المشاعر التي والله لا نظير لها بالوجود مطلقًا.. وهي تحوم في المسجد كأنها الحقائق، وتحوم على رأس كل أحدٍ.. وتفعل أفاعيلها في صَدْرِه وحاله... لا بد أن نعيشها بعض معايشة، لكي نتلقى هذا الحديث كما تلقى الصحابة رضي الله عنهم هذا الحديث حقيقة، وتلقوا هذا المشهد واقعًا، وهم طوال الليل ينتظرون، ويدعون، وينتظرون حتى طلع فجر الاثنين، وما أدراك ما فجر الاثنين!؛ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَمَا الْـمُسْلِمُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، **فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ، فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**، وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى عَقِبَيْهِ؛ لِيَصِلَ لَهُ الصَّفَّ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخُرُوجَ، وَهَمَّ

الْـمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلَاتِهِمْ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ: «**أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ**»، فَأَرْخَى السِّتْرَ، وَتُوُفِّيَ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ»(١).

وفي رواية أخرى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكَانَ تَبعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَدَمَهُ وَصَحِبَهُ: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ، وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، **ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ** عَلَى عَقِبَيْهِ؛ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ»(٢).

لن نتجاوز وصف أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للحادث العظيم.

وسوف آخذ هنا برواية أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف الابتسامة العظمى: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»، ولن أحملها على رواية: «تَبَسَّمَ ضَاحِكًا»، فالأولى أكثر ورودًا في الروايات، ثم إن فيها من الفوائد العظيمة ما ليس في الأخرى، ثم عن الأصل أن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو مَن قالها، وليست هي من تصرف الراوي، ثم هكذا هي قراءة القرآن، فيؤخذا عند التفسير بكل المعاني الواردة في جميع القراءات ما لم يمنع من ذلك مانع، ومن هذا الباب قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [١٦]، وقراءة: ﴿أَمَّرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾(٣)، فأهل

(١) رواه البخاري (٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

(٣) قراءة تشديد الميم إنما جاءت في قراءة شاذة خارجة عن القراءات العشر المتواترة، قال القرطبي في التفسير(١٠/ ٢٣٣) قوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا﴾ قَرَأَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ وَأَبُو رَجَاءٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: «أَمَّرْنَا» بِالتَّشْدِيدِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَيْ: سَلَّطْنَا شِرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ. وَقَالَ أَبُو عثمان النهدي: «أَمَّرْنَا» بتشديد الميم، جعلناهم أُمَرَاءَ مُسَلَّطِينَ.



التفسير والتأويل يأخذون بالقراءتين.. ومع هذا فلم أهمل - معاذ الله - رواية: «تَبَسَّمَ ضَاحِكًا».. والحمد لله رب العالمين.

ثالثًا: ماذا جمعت هذه الابتسامة؟

سبحان مَن جعل ختام حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتسامة.. سبحان مَن جعل آخر نظرة ينظرها الشهود إلى وجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتسامة..

سبحان مَن جعل رضاه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما قدمه متمثلًا بالابتسامة التي أغنت عن كل حديث..

سبحان مَن جعل الوداع الأشد والأصعب بابتسامة.. وسبحان مَن خفَّف شدة ذلك الرحيل على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالابتسامة...

سبحان مَن أبلغهم بنتيجة ما وصلوا إليه من خلال الابتسامة..

سبحان مَن أبلغ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بما لهم في قلب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألطف وأحسن ما يكون التبليغ حيث كانت أحرفًا من النور على وجهه الشريف بالابتسامة المشرقة من وجه هو أعظم إشراقًا من القمر ليلة البدر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكم انشقت عن هذه الابتسامة ابتسامات.. بل انشق عنها بشارات.. وكل تشريع كريم نزل، وكل حال سيكون في الأمة إلى قيام الساعة.. والأمر فوق كل تصور.. إنها ابتسامة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي حرَّكها الله رب العالمين، الذي ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].. على ثغر الحق الذي لا ثغر مثله أبدًا، هو ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، بل هو مَن [لا يخرجه إلا الحق]. إنها الحكمة الجامعة، وإنها جامعة الحكم.

الابتسامة الأخيرة جامعة الحِكم والأحكام:

الحكمة الأولى[1]: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: تتابع الأحداث الأخيرة حتى الابتسامة

(١) لا أزال مُصِرًّا على تسمية كل فكرة جديدة من ابتسامة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأولى، فالابتسامة في هذا الموقف غَدَتْ سُنَّة، ولم تكون تلك ابتسامة صورة جامدة، بل حياة عظيمة في كل مجال... وهل ينشق عن الابتسامة العظمى إلا ابتسامة في كل أمر..

الأخيرة: وهو يعلم أنها اللحظات الأخيرة، فلنعلم هنا أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين تبسَّم يضحك فقد كان يعلم يقينًا أنه ميت، وأنه الوداع الأخير.

فما كانت هذه الحالة التي يمرَّ بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا حلقة من حلقات إعداد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحقيقة وفاته، وإن كانت هذه هي الحلقة الأخيرة، والنظرة الأخيرة.. لقد حضرت مَن قال عنها هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ**»[1].

وكان من أول **ذلك الإعداد** قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وذلك لما انتشر خبر وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة أحد أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، إذًا فإن الإعداد لفراق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصعوبته لم يكن لمجرد التحمل العاطفي وإنه لعسير.. ولكنه الإعداد لحمل راية الإسلام التي لا ينبغي أن تسقط أبدًا.

وكان من آخر حلقات الإعداد لهذا الخبر الأصعب، ومن أجمل المختصرات في هذا هو ما جمعه مؤلفو كتاب نضرة النعيم - جزاهم الله خيرًا - في الجزء الأول ص (٤٠٢ - ٤٠٤) حيث قالوا:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. اشتكى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سم أصابه منذ العام السابع الهجري، فقد تناول بعد فتح خيبر قطعة لحم من شاة مسمومة مشوية قدمتها له زوجة سلام بن مشكم اليهودية[2]، ورغم أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد لفظ اللقمة ولم يبتلعها، فإن نوعية وكثافة السم الذي احتوته قد أثَّر عليه[3]، أما مرضه الأخير فكان قد ألمَّ به أول ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة،

(١) رواه الدارمي (٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٥٣)، وصححه الألباني.
(٢) البخاري - الصحيح فتح الباري (٨/ ١٣٨).
(٣) المرجع السابق (٨/ ١٣٨).

وبعد شهرين ونصف من عودته إلى المدينة من حجة الوداع، حين شعر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمرض وهو في بيت أم المؤمنين ميمونة(١)، وطلب من زوجاته أن يمرَّض في بيت أم المؤمنين عائشة(٢)، واستغرق مرضه عشرة أيام(٣).

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقرأ بالمعوذتين والأدعية المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتمسحه بيده رجاء البركة(٤).

وفي اليوم الخامس من مرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتدت عليه الحمى، فطلب أن يصبّوا عليه الماء، حتى يخرج للناس فيعهد إليهم، وبعد أن استحم أحس بخفة، فعصب رأسه ودخل المسجد، فصعد المنبر وخطب فنهى عن اتخاذ قبره وثنًا يُعبَد(٥)، ولعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد(٦)، وعرض نفسه للقصاص، وأوصى بالأنصار خيرًا، وفي نهاية خطبته قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللهِ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ**»(٧).

وقد اشتد بكاء أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعجب الناس من ذلك، فكان المخيَّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر أعلمهم بذلك، وأثنى النبي على أبي بكر صحبته، وما أنفق في سبيل الله ونصرة الإسلام؛ فقال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا عِنْدَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ**»، وَأَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلَّا يَبْقَى فِي المَسْجِدِ

---

(١) ابن حجر - فتح الباري (٨/ ١٢٩).
(٢) البخاري - الصحيح فتح الباري (٨/ ١٤١ حديث ٤٤٤٢، ٤٤٥٠)، أحمد- الفتح الرباني (٢١/ ٢٢٦) بإسناد صحيح.
(٣) ابن حجر - فتح الباري (٨/ ١٢٩).
(٤) البخاري - الصحيح فتح الباري (٨/ ١٣٨ حديث ٤٤٢٩، ٤٤٥١)، مسلم- الصحيح (٤/ ١٧٢١- ١٧٢٤)، الأحاديث (١٢٩١- ٢١٩٢).
(٥) البخاري - الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٤٢٥، ٤٣٦، ٤٣٧)، ومسلم (١٠/ ٤٧٥٦) (حديث ٥٢٩، ٥٣٢)، مالك - الموطأ ص (٣٦٠).
(٦) مالك - الموطأ ص (٣٦٥)، البيهقي- دلائل النبوة (٧/ ١٦٩- ١٨٠).
(٧) البخاري - الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٤٤٣١- ٤٤٣٢)، مسلم (٣/ ١٢٥٧- ٥٩)، (الحديث ١٦٣٧).

بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ[(١)].

وقبل وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعة أيام أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، كما أمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم[(٢)]، وحين اشتد وجعه ذلك اليوم قال للصحابة الذين كانوا معه: «**هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ**»، فاختلفوا وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الوَجَعُ، وَعِنْدَكُمْ القُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللهِ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالِاخْتِلَافَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُومُوا عَنِّي**»[(٣)].

وفي اليوم التالي أثر عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[(٤)].

وقد أثقله بعد ذلك المرض، ومنعه من الخروج للصلاة بالناس، فقال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ**»، وقد راجعته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقالت: «**إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ ضَعِيفُ الصَّوْتِ كَثِيرُ البُكَاءِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ**»، فأصرّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، فمضى أبو بكر يصلي بهم[(٥)]، وحين شعر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك بتحسن، وخرج لصلاة الظهر وهو يتوكأ على رجلين رآه أبو بكر فأراد أن يتأخر، فأومأ إليه ألّا يتأخر، فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر[(٦)].

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري الحديث ٤٤٣٢)، ومسلم - الصحيح (الحديث ١٦٣٧).
(٢) الذهبي - السيرة ص (٥٥٧)، ابن ماجه - صحيح ابن ماجه للألباني (١/ ٢٧١)، كتاب الجنائز (حديث ١٦٢٥)، وقال: صحيح، وصححه الهيثمي - مجمع الزوائد (٤/ ٢٣٧).
(٣) هناك قرائن تشير إلى أن أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإحضار أدوات الكتابة لم تكن على الوجوب وإنما فيه تخيير، فلما قال عمر مقولته لم يكرر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، ولو كان الأمر لازمًا لأوصاهم به، وانظر البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٢).
(٤) الذهبي - السيرة ص (٥٥٧)، وقال: إنه حديث صحيح من العوالي.
(٥) أحمد - الفتح الرباني (٢١/ ٢٢٦- ٢٢٧) من طريق ابن إسحاق ورجاله ثقات، أبو داود - السنن (٥/ ٤٧- ٤٨)، ابن كثير - البداية (٥/ ٢٣٢- ٢٣٣).
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤١)، أحمد - المسند (الفتح الرباني ٢١/ ٢٣١)، ابن كثير - البداية (٥/ ٢٢٩- ٢٣٠)، وانظر كذلك مسلم - الصحيح (١/ ٣١٣- ٤) (حديث ٤١٨).

أعتق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم السابق لوفاته غلمانه، وتصدق بما كان معه من دنانير، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا نُورثُ وَمَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»(١).

أطلَّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجر يوم وفاته على المسلمين وهم يستوون لصلاة الصبح حيث كشف ستر حجرته ونظر إليهم وتبسَّم، وهمَّ المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأخر أبو بكر عن موضع الإمام ملتحقًا بالصف الأول، غير أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إليهم بيده الكريمة: «**أن أتمّوا صلاتكم**»، ثم دخل حجرة عائشة، وأرخى الستر(٢).

ودخلت عليه فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عند الضحى فقالت: «وَا كَرْبَ أَبَاه»، فقال لها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**»(٣).

ثم دعاها فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فأخبرت بعد وفاته أنه أخبرها بموته فبكت، ثم أخبرها بأنها أول أهله لحاقًا به فضحكت(٤)، والحديث من دلائل نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن ما أخبرها به قد كان.

وكان آخر ما تكلم به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله وهو يستند إلى صدر أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» كررها ثلاثًا(٥). ثم مالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى(٦).

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٦٧٢٦- ٦٧٢٨، ٦٧٣٠)، وانظر ابن سعد- الطبقات (٢/ ٢٣٧- ٨، ٣١٦- ٣١٧)، من عدة طرق يتقوى بعضها ببعض، ولها شاهد من حديث البخاري أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك عند موته عبدًا ولا أمة.

(٢) البخاري - الصحيح (فتح الباري حديث ٤٤٤٨).

(٣) المرجع السابق (فتح الباري ٨/ ١٤٩ حديث ٤٤٦٢).

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ١/ ٢٠٨ الاحاديث ٤٤٣٣- ٤)، مسلم- الصحيح (٤/ ١٩٠٤) (حديث ٢٤٥٠).

(٥) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٦ حديث ٤٤٤٩)، ابن هشام - السيرة (٣/ ٣٢٩) بإسناد صحيح.

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٢ حديث ٤٤٦٣)، ومسلم - الصحيح (٤/ ١٨٩٤) (حديث ٢٤٤٤).

وكانت وفاته ﷺ حين اشتد الضحى من يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول عام إحدى عشرة للهجرة[(١)]، وقد نادت فاطمة الزهراء: «يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه إلى جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه: إلى جبريل ننعاه»[(٢)].

ولم يصدق عمر بن الخطاب نبأ وفاته ﷺ وتهدَّد مَن يقول ذلك[(٣)]. أما أبو بكر فقد جاء من بيته بالسنح، ودخل على النبي ﷺ وكشف عن وجهه وقبَّله وبكى، ثم خرج إلى الناس وهم بين مصدق ومنكر، فقال: «أَمَّا بَعْدُ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤][(٤)].

هدأ الناس واطمأنت نفوسهم إلى قضاء الله تعالى وكأنهم لم يكونوا قد سمعوا الآية من قبل[(٥)].

الحكمة الثانية: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: تعزيته أمته بنفسه ﷺ:

وبهذا فإن رسول الله ﷺ هو مَن عزَّى أمته في نفسه بهذه الابتسامة أعظم العزاء.. وعزاهم عن رحيله ببقاء دينه وشريعته وكتاب الله وسنته هو ﷺ، وكم يلفت الانتباه جمع أنس رضي الله عنه ما بين ابتسامته وضحكته في كثيرٍ من الروايات، وأصحها: «ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ»، فأنس رضي الله عنه وهو راوي الحديث، هو الفقيه الحصيف الأمين على روايته، وقد روى ما رأى بأدق ما تكون الدقة، فلقد جمع رضي الله عنه بهذه

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٥٠ حديث ٤٤٦٦)، وانظر ابن حجر - الفتح (٨/ ١٢٩).
(٢) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٩) حديث (٤٤٦٢).
(٣) أحمد - الفتح الرباني (٢١/ ٢٤١-٢٤٢)، ابن سعد - الطبقات (٢/ ٢٦٦)، الصنعاني - المصنف (٥/ ٤٣٣-٤٣٤).
(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٥) الأحاديث (٤٤٥٢-٤٤٥٤).
(٥) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٥).

الرواية ما لا يمكن أن يبلغه بشر إلا بالهداية من رب العالمين، فالابتسامة اليوم ليست كأي ابتسامة كما كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يروونها في جميع الأحاديث، فهذه الكيفية ما رأيتها حسب علمي وبحثي إلا في هذا الموطن دون سواه، «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ» فالوحي بعدُ لم ينقطع، والتشريع ما زال مستمرًا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٤،٥] وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»[١]، وما يخرج الآن هو خلاصة كل خلاصة، هو حركة الوداع، هو إشارات مزدحمة من الهدى والنور والعلم والحكمة والبشائر.. هي ذرة من ذرى الإعجاز؛ إذ تجمع كل ذلك من غير أن يندَّ عنها حرف واحدٌ من معانيها أنها: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فَتَبَسَّمَ» لكن التبسم استمر، ولم ينقطع ما دام ينظر إليهم فقال: «يَضْحَكُ».

وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فَتَبَسَّمَ» لكن التبسم استمر وتصاعد أكثر وأكثر، لذا جاء قوله: «يَضْحَكُ» أي من غير صوت ولا تحريك جوارح.

فهذا الترتيب العظيم طوى فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنتاجه، الابتسامة هنا من طوي الشرائع والدين طوى كل شيء.. وسوف نرى - بإذن الله - ذلك، بل طوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا النوع الفريد من الابتسامة، في هذا الموقف المهيب الذي العظمة الواحدة منه تطوي حياة بأكملها، وتستشرف مستقبلًا لا حد له.. فكيف وهذه لحظات وداع حياة سيد ولد آدم على الإطلاق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا كان هذا الحال شهدناه نحن وغيرنا.. فمَن هم بجوار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحد بجواره عند المقارنة ولا المقاربة مطلقًا.

الحكمة الثالثة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: هذه اللحظة في حياتي ولأبعد لحظة في أمتي:

إنما هي الابتسامة الكريمة في وجه الدنيا كلها فسبحان مَن حفظها ومرت للدنيا كلها، إنها البشارة تحملها تلك الابتسامة للناس في عهده وللناس من بعده؛ ألا خوف

---

(١) رواه أحمد (٦٨٠٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

عليكم ولا أنتم تحزنون.. فأي حزن على فراقكم وأنتم جهدي وثمرة حياتي.. وأي خوف عليكم وكل واحدٍ منكم رجلٌ بأمة، «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ» هكذا هي الحقيقة فالتبسم لكم أنتم يا صحابتي.. أنتم إشراقتي وسعادتي، وهذه الصلاة قرة عيني، وأنتم والصلاة قد اجتمعتم في مسجدي ومقامي، فأي حفظ لكم وأي حرز عليكم.. ولم لا [يضحك] وقرة عينه الآن أمام عينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أخبرهم أن الأيام العظمى القادمة التي أخبر بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنى لها أن تغيب عن عينيه وهي جهده، وجهدكم يا صحابته العظام، وهي ثمرة دعائه، وقَدَم الصدق له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر أمته، وختام الحياة، وهو ختام الأمم وستأتي معنا بإذن الله.

الحكمة الرابعة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: الإقامة بالإقامة:

وهكذا أشرقت عليهم إذ هم قيام لركن الإسلام الأعظم وهو الصلاة.. **لتذكِّر الإقامة بالإقامة**، فإن تعبير مَن رأى إقامة الصلاة في منامه، بإقامة الدين كله وذلك كما جمعها الله سبحانه ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فقد قال سبحانه: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فكانت الحكمة البالغة وكانت رسالة وأي رسالة.. فالله سبحانه يرسل هذه الابتسامة لكل الأمة، ويرسلها لأخص العصور ضعفًا للأمة خاصة في هذه الأيام.. وذلك لأن إقامة الدين ما انقطعت من الحياة أبدًا، وما فُرِّق بينها وبين الصلاة أبدًا إلا في المائة الأخيرة هذه.. والبشارة بالابتسامة لنا أن يا أمتى فإنكم ما وقفتم على هذه الصلاة فلن يستطيع أحد أن يفرق بين إقامة صلاتكم وبين إقامة دينكم.. فأبشري يا أمتي يا مَن تأتون في مرحلة هذا التفريق المقيت ما بين الإقامة والإقامة.. أبشري فلن يستطيع أحد أن يفرِّق إلى الأبد بين ما جمع الله، أبشري فإن الله سوف يعيدها كما تركتُ الأمة عليه آنذاك، وأن أمتي عائدة إلى الدين الكامل الشامل لإقامة الصلاة لله مع إقامة الحياة كلها لله.. لا تفريق بين أقيموا وأقيموا.. وسيلتئم الشقان، ويجتمع الشتيتان بعدما ظنَّ الظانون كل الظن أن لا تلاقيا... تلك هي الرسالة من «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ» لنا نحن خاصة أصحاب هذا

الزمان، وهذا ما ثبتت به سنته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فالإقامة الثانية متأخرة عن الإقامة الأولى؛ فلقد صح في الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتُقِضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا: الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ: الصلاة»**(١).

الحكمة الخامسة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: [الصلاة.. الصلاة]:

نعم ابتدأ بالتبسم وهذه سنته وهو حدّ الابتسامة ومداها... حتى أردفها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بـ: «**يَضْحَكُ**»، وهذه لا يفعلها أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من عند نفسه أبدًا وحاشاه، لو لم يطرأ طارئ، لو لم يكن دافع، لو لم يزدد الأمر على استحقاق التبسم رغم أنه لا بد أن يكون من نوع الموضوع.. لكنه شيء أكبر وأبعد.. والذي يدعونا لهذا هو تفريق أنس ما بين متماثلين، وكان يستطيع أن يقول: [فتبسم تبسمًا]، أو نحوها، فهو صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعدما رآهم [تبسم]، لكن الدافع الجديد فأصبح [يضحك]، فغلبت الضحكة لأنها الأكبر على الابتسامة وخَلَفَتْهَا، فالأمر ليس مجرد أحرف لغوية، ولا كلمة بديلة عن كلمة.. إنما هي الأمانة العظمى يبلغها أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما رآها، وهكذا ورد الأمر في الحديث: «فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ»(٢)، وسوف تقول: وهل عَلِمَ أنس بكل هذه المعاني؟! وأقول: وهل أنا أَعْرَفُ هذه المعاني ولا يعرفها أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ..وما من معنى - كما سترى - إلا وعليه شاهد من قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشاهد من المنطق العقلي... ثم هل أنا هذا القزم أعرف هذا وأنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذلك الذي نبت على يد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في موطن التنزيل، ورآه في الصباح والمساء، في السفر والحضر، في الجهاد وفي السلم، في الغضب والرضا، مع أهله ومع أمته لا يعرفها معاذ الله من هذا الظن.. وأعوذ بالله أن أظن هذا الظن في نفسي، أو أفتري هذا البهتان العظيم، ولقد كتبت هذا الفصل قطعة واحدة.. ولكني رأيت الآن وأنا أعيده للمرة

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٧١٥)، والطبراني في الكبير (٧٤٨٦).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الثالثة أن أَفْصِلَ النقاط نقطة نقطة، وأحددها تحديدًا أولًا فثانيًا وهكذا، وما هذا التفصيل بالأدلة إلا ليتحقق المؤمن ويطمأن قلبه من كل نقطة منها.. بإذن الله.

وأول الأمرين هو ابتسامته الأولى ﷺ «فَتَبَسَّمَ»، وذلك أن هذه الصلاة هي ما يراه أمام عينيه ﷺ فقرَّتْ عينه بمَن حضر إذ هم يصلون كما علَّمهم ﷺ وكما رأوه بأعينهم، وهو القائل ﷺ: «**وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[(١)].. وهذا أعظم عنوان لبقاء هذا الدين ببقاء حَمَلَتِه إلى مَن بعدهم، فهم حملته إلى التابعين يقينًا لا ريب فيه، فإذا تحرك الشلال العظيم من أعلى مرتفع من الأرض فإنه باقٍ حتى الطرف الآخر لا يُوقِفُه شيء.. فالدين محفوظ إلى الطرف الآخر والأخير من الدنيا كما تحفظ هذه الصلاة سواء بسواء ولهذا فلقد كانت الصلاة هي وصيته ﷺ الأخيرة؛ فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ حَضَرَهُ الْـمَوْتُ: «**الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**». حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغَرْغِرُ بِهَا صَدْرُهُ، وَمَا يَكَادُ يَفِيصُ[(٢)] بِهَا لِسَانُهُ[(٣)].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَوْمًا لَمْ يُغِرْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ بَعْدَمَا يُصْبِحُ، فَنَزَلْنَا خَيْبَرَ لَيْلًا**»[(٤)].

الحكمة السادسة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: البشرى بالابتسامة أولًا:

وامتداد الابتسامة «يَضْحَكُ» بانتشارٍ أكثر ووقت أطول وتصاعدٍ في الأعلى من المعاني حتى المنتهى، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ

(١) رواه البخاري (٦٠٠٨).
(٢) وما كاد يَفِيصُ: قال البغوي في (شرح السُّنَّة) (٩/ ٣٥٠): هو بالصاد غير معجمة يعني: ما يَبِينُ كلامه، يُقال: فلان ما يَفِيصُ بكلمة: إذا لم يقدر على أن يتكلَّم ببيان، وفلان ذو إفاصة، أي: ذو بيان.
(٣) رواه أحمد (١٢١٦٩)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.
(٤) رواه البخاري (٢٩٤٣).

﴿ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، فهذا الحال هو ما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علامات الساعة الكثيرة فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوى ما سيكون في هذه الابتسامة طيًّا إعجازيًّا عظيمًا، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات والإسلام لم يتجاوز حدود الجزيرة العربية إلى خارجها وهذا هو مقام الابتسامة.. لكن الأمر لن ينقطع بانقطاع الابتسامة، ثم إن ابتسامة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لن تنقطع ولن تنطفئ أبدًا، فلقد دخلت الابتسامة في عالم أكبر وأوسع وأعدادٍ من أهل الإسلام فوق العدد والتصور، كما كبرت رقعة الإسلام أكثر وأوسع فمن الجزيرة العربية إلى العالم كله من بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحكمة السابعة: فما أعظم قوله: «يَضْحَكُ» بعد قوله: «فَتَبَسَّمَ» بالنسبة لختام الأمة..

فلكأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في لحظته التي رأى فيها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ «فَتَبَسَّمَ» وهذه عنوان رضا بما يراه أمام عينيه.. لكن الله سبحانه ما قطع نظره عند هذا، فكشف له الغيب العظيم القادم لدينه ولأمته، وخصوصًا وأنه اشتاق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مَن بعده، كما أعلن هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك في آخر زيارة له للبقيع؛ فقال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»(١).

فكأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في لحظة أُنْسِه بصحابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ذكّره الله عَزَّ وَجَلَّ بكل ما أخبره به من قادم الخير والسعة والكثرة والعلو الأعظم في التاريخ كله، وما إلى ذلك من بشائر، فامتدت الابتسامة من عصره إلى مَن بعده وبعده، كالذي يريد من ذاك البعيد أن يرى ابتسامته كما يراها القريب منه، فمن هؤلاء الآباء إلى الأصلاب والذريات إلى تحقق رجائه وحسن ظنه بربه يوم قال لملك الجبال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢).. إلى عصرنا هذا إلى قيام الساعة.. فجاءت

(١) رواه مسلم (٢٤٩).
(٢) رواه البخاري (٣٢٣١).

«**يَضْحَكُ**» بعد «**فَتَبَسَّمَ**»، فأي عظمة لهذا التقديم والتأخير وذاك الوعد الأخير! ومن هذا الوعد هو قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ**»[1]، وحديث المهدي... «**أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِيِّ يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ وَزَلَازِلَ، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الْأَرْضِ، يَقْسِمُ الْمَالَ صِحَاحًا**»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا صِحَاحًا؟ قَالَ: «**بِالسَّوِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ**»، قَالَ: «**وَيَمْلَأُ اللهُ قُلُوبَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **غِنًى، وَيَسَعُهُمْ عَدْلُهُ، حَتَّى يَأْمُرَ مُنَادِيًا فَيُنَادِي، فَيَقُولُ: مَنْ لَهُ فِي مَالٍ حَاجَةٌ. فَمَا يَقُومُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلٌ فَيَقُولُ: أنا، فيقول: ايتِ السَّدَّانَ، يَعْنِي الْخَازِنَ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ الْمَهْدِيَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تُعْطِيَنِي مَالًا، فَيَقُولُ لَهُ: احْثُ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ وَأَبْرَزَهُ نَدِمَ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَجْشَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ نَفْسًا، أَوَعَجَزَ عَنِّي مَا وَسِعَهُمْ؟ قَالَ: فَيَرُدُّهُ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّا لَا نَأْخُذُ شَيْئًا أَعْطَيْنَاهُ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ، ثُمَّ لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُ أَوْ قَالَ: ثُمَّ لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَهُ**»[2].

ليس المهدي مجرد رمز، أو ولدًا من ذرياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.. بل هو مَن سيعيد الله به الإسلام كما هو «**خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**»[3]، وخلافة ميزاتها العظمى هي أنها على سعة الأرض طولًا وعرضًا، فلا يكاد يوجد على الأرض إلا المسلمون، أما غير المسلمين فهم قلة وهم ملتزمون بحكم الله بعز عزيز أو بذل ذليل.. ثم في عهده تتضاعف البشرية ويتضاعف عطاء الله للناس فتفتح السماء للناس أبوابها، وتخرج الأرض ببركاتها، ويحدث الله عَزَّ وَجَلَّ ما ذكره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي مرَّ معنا، وهكذا أشار بآخر عهده مع هذه الإطلالة الكريمة أن

(١) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) رواه أحمد (١١٣٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣١٤) رقم (١٢٣٩٣): رَوَاهُ أَحْمَدُ بِأَسَانِيدَ وَأَبُو يَعْلَى بِاخْتِصَارٍ كَثِيرٍ، وَرِجَالُهُمَا ثِقَاتٌ.
(٣) رواه أحمد (١٨٤٠٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.



«**يَضْحَكُ**» إلى آخر عهد هذه الأمة في الدنيا إلى ظهور ولده إلى حياة النعيم الذي لا نعيم مثله، والخير الذي لا ينقص، ففي الحديث: «**وَتَنْعَمُ أُمَّتِي فِي وِلَايَتِهِ نِعْمَةً لَمْ تَنْعَمْهَا قَطُّ**»(١).

فكيف لا يبتسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكيف لا يزيد التبسم تبسمًا ويضحك بعد التبسم حتى كان آخر الأمر منه في لحظته هذه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أن «**يَضْحَكُ**»،

الحكمة الثامنة: اختياره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرفيق الأعلى: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»:

نعم الحياة معكم يا أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنكم جميلة وعظيمة وسعيدة، ولكن الرفيق الأعلى شيء آخر، فكيف لا يبتسم أولًا وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى ما يراه، ثم كيف لا يضحك بعد ذلك والابتسامة سوف تستمر وتزداد إلى الأبد.. إلى أن أرخى الستر بينه وبين أصحابه «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»، واللقاء يوم القيامة «**فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**»(٢).

و لقد صح في الحديث عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ**»، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ، مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ، إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ»(٣).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ: لَا يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ، يَقُولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الْآيَةَ [النساء:٦٩]، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»(٤).

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٠٤٤٧)، وقال محققه سعد بن ناصر بن عبد العزيز أبو حبيب الشثري: صحيح.
(٢) رواه البخاري (٣٧٩٢).
(٣) رواه البخاري (٤٤٦٢).
(٤) رواه البخاري (٤٤٣٥).



الحكمة التاسعة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: المفاخرة العظمى:

لا شك أن الأصل عند رسول الله ﷺ هو أن يُعلي الله دينه على الدين كله.. ولكن أن يمنَّ الله عليه أكثر فيجعل له الحبين؛ الحب الشرعي، والحب الطبعي أو الفطري، فيجعل إعلاء الدين الأخير في ولده، فهذا هو الحب الطبعي الفطري في نفس كل أب، وهذا العطاء من الله وحده، وأن يجعله في ختام الأمة كما جعله في أولها كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا من قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فإن رفع الذكر متحقق لا شك فيه، لكن الرفعة في آخر الزمان تصبح عند الأمة العظيمة الكبيرة في الآخِرين كلما رأوا المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو رأوا ما صنع الله به في الأمة من عودة وعظمة، وكلما رأوا هديه واتِّباعه لأبيه ﷺ، ولسان أحدهم وهو ينظر لذلك ولفتوح المهدي وأعماله يقول: لبيت رسول الله ﷺ حاضرًا بيننا، ولسان الآخر يقول: فكيف لو كان رسول الله ﷺ؟ فما المهدي إلا ولده وتابع له ﷺ.

ولسان الآخر يقول: لا يليق هذا الولد إلا أن يكون أبوه هو رسول الله ﷺ.

ولسان الآخر: سبحان الله؛ ما أعظم حكمته، وما أعظم محبته لرسوله ﷺ إذ جعلها له الأولى والآخرة، أي: أول الأمة وآخرها.. وربط الآخرة بالأولى أعظم ربط، وحفظ دين الأمة، فلو أنه كان من أي بيت لمال هذا البيت كما مالت جميع البيوتات التي حكمت الأمة بعد رسول الله ﷺ بنسب متفاوتة.

وقال آخر: سبحان الله الذي حفظ الدين في مقام لا ينازع في الآخرين... بل كل الأمة قادمة كيف فاتها هذا الأمر، وكيف أسلمت نفسها؟!

وقال آخر: كيف أن الله عَزَّ وَجَلَّ كشف مَن تسلَّط على أهل الإسلام باسم آل البيت، وتولى عليهم باسمهم، وغير دينه باسمهم.. وظن الظانون أن هؤلاء قطعوا طريق العودة، فجعل الله مَن يُعيد الأمة محط الإجماع، كما جعل إبطال الباطل من آل البيت الحقيقيين الذين لن يجادل فيهم أحد من العالمين وقتها.

والآخر يقول: أكل هذا الكسب على مستوى الأرض كلها إلى آخر الزمان مليارات الممليرة من البشر لا تُعد ولا تُحصى في ميزانك يا رسول الله ﷺ.. فكيف لا يبكي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذا التفوق في كل شيء، فإن هذا من رصيد رسول الله ﷺ إذ قال: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ**»(١).

الحكمة العاشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: موعدكم رؤيتي يا مَن لم تروني:

لئن غابت هذه «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**» عمن رآها من الصحابة وما كان لها أن تغيب عنهم بعد رؤيتهم بأعينهم رسول الله ﷺ وقد «تَبَسَّمَ يَضْحَكُ»، فإنها لا ينبغي أن تغيب عمن لم يكن حظه من الرؤية إلا الرواية مثلنا.. فهي عهد من رسول الله ﷺ لنا نحن الذين جئنا من بعده، وكأن قائلًا يقول لنا: موعدكم الرؤية موعدكم الحوض هذا العهد موثق بحديث: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»(٢)، فمَن الأولى بالرؤية عند ازدحام الناس على الفرد بعد انقطاع طويل وسفرٍ بعيد؟ هل الأصحاب أم الإخوان؟ إن الإخوان أولًا، ثم الأصحاب، ثم عامة الناس، ولا تحسبوا أن الرسول ﷺ قال ما لم يقصد في الحديث.. معاذ الله من هذا البهتان على رسول الله ﷺ.

وهذا لا يعني أنهم أرفع مقامًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل الصحابة هم خير القرون، وخير الأجيال، وخير الناس بعد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، ولم يقل: إخواني، بينما حين قال له الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ أجابهم بقوله ﷺ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**» فالخصوصية هنا لهم في رسول الله ﷺ، والأخوة «**إِخْوَانَنَا**» عامة لرسول الله ﷺ وصحبه - والله أعلم.

---

(١) رواه النسائي (٤٤٥٢) واللفظ له، وأبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨) باختلاف يسير، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٤٩).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْمَقْبَرَةَ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا**»(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ، قَالَ: «**طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي**»، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «**شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِئَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**»(٢).

الحكمة الحادية عشرة: وا شوقاه إلى رؤياه ولو في رؤيا: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»:

أبى الله عَزَّ وَجَلَّ إلا أن يقرَّ أعين المؤمنين من غير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأعظم ما تكون قرة العين، وهو رؤيا في المنام، وكم رأينا من المسلمين - صالحين وغير صالحين - ما يعجز الوصف عن اشتياقه لرؤية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يود لو أن ثمنها حياته، فهو يتمنى لو أنه رآه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم مات بعدها، عندها سيموت هو قرير العين.. ولا غرابة والله في هذا الحب فإنه: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ:**

(١) رواه مسلم (٢٤٩).
(٢) رواه أحمد (١١٦٧٣) واللفظ له، وابن حبان في صحيحه (٣٥٥٢).

إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»[(١)]، فكيف بحبه سبحانه لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف سيكون حبه في القلوب.. كيف وهو رسول الله محمد بن عبد الله سيدنا، وقائدنا، وقدوتنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. هو مَن أحيانا الله به، وأحيا به العالمين.. كيف، وكيف، وكيف؟! ولهذا فلقد عبَّد الله طريق رؤيتهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحرس لهم الطريق حراسة مطلقة، فلا يخترقها شيطان أبدًا، ولو كان أباهم – نعوذ بالله منهم أجمعين –.

الحكمة الثانية عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: التبسم كافٍ لهذه الدار:

فتبسم هذه سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الدنيا، وما كان يضحك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضحك القهقهة والصوت العالي ونحو ذلك.. ولو كفت الابتسامة في هذا الموقف لما زاد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه لم يَرِد في الآخرة التبسم، بل الآخرة كما مرَّ معنا من قبل هي دار أعلى درجات الأُنس، والفرح، والسرور، والمناداة بالفرح والسرور والحبور والإعلان به، إذ هناك المنتهى الذي لا له ولا منغص له؛ قال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].. ولذا فما قوله: «**يَضْحَكُ**» من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا إلا إشارة لما سيكون عليه الحال في الآخرة، فلو انقطع الأمر عند الابتسامة لانقطع الحال وكان الوداع نهائيًا بغير لقاء قادم، لكن من فضل الله وبشارته أن تابع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الابتسامة من فوره [يضحك] إشارة خفيفة لطيفة إلى ما بعد الابتسامة ودار الابتسامة، إلى تلك الدار التي لا منتهى أبدًا لسعادتها، وضحكتها، ونعيمها لأمته خاصة، فسعادته العظمى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسعادة أمته العظمى، والأحاديث في هذا النوع من التبشير صريحة وكثيرة، وهي إشارة عظمى لخصائص رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشفاعة العظمى والشفاعة لأصحاب الكبائر، والشفاعة لمَن لم يأت بحسنات،

(١) رواه مسلم (٢٦٣٧).

والشفاعة لمَن ليس عنده إلا لا إله إلا الله، والشفاعة، والشفاعة.. وشفاعته عند الصراط، وشفاعته عند الميزان، وشفاعته لـمَن أخذوا ليدخلوا النار قبل دخولهم، وشفاعته لآخرين بعد دخولهم النار، وشفاعته لفتح أبوا الجنة..

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا**[1]، **لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ**»[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا؟ فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ: الْجَدْوَلُ - فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**أَبُو هُرَيْرَةَ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**»، قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا فَفَزِعْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ فَاحْتَفَزْتُ[3] كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**»، وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَنِي بِهِمَا، مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِاسْتِي، فَقَالَ: «**ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**»، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً، وَرَكِبَنِي عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**»، قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ،

(١) أيس: مقلوب يئس من اليأس بمعنى القنوط.
(٢) رواه الترمذي (٣٦١٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٣) احتفزت: تضاممت ليسعني المدخل.



فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَنِي بِهِ، فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِاسْتِي، قَالَ: ارْجِعْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عُمَرُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَخَلِّهِمْ**»(١).

إن التبشير بهذه البشائر لأصحاب الأعمال الصالحة في الدنيا شيء، إلا أن قبض البشارة شيء آخر، وفرح آخر، وسرور لا ينقطع أبدًا، وهكذا الشأن في كل البشائر.

عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

فالبشارة بالنور التام الدائم يوم القيامة شيء.. وتحقق هذه البشارة واقعًا، ووجدان النور التام يوم القيامة شيء آخر.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَكَبَّ، فَأَكَبَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا يَبْكِي لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى، فَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَقِيلَ لَهُ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ**»(٣).

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ؛ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ**

(١) رواه مسلم (٣١).
(٢) رواه أبو داود (٥٦١)، وصححه الألباني.
(٣) رواه النسائي (٢٤٣٨)، وقال محقق جامع الأصول (٩/ ٥٤٣) وقال محققه: حديث حسن.

أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»[(١)].

الحكمة الثالثة عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: تثبيت الآخرين على المصيبة بالابتسامة:

إنها ابتسامة هذا العهد السعيد وذاك العهد القادم الجديد، فكونوا على العهد السعيد الأول لنلتقي على حوضي، وعندها ليس لكم إلا أن تضحكوا فعهد التبسم الذي أيًّا كان فمنغصات الدنيا تكيفه وتلاحقه.. اعبروها مرحلة وأنا أتكفل لكم عند ربي.

لقد أدرك الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عظمة تلك الابتسامة الكريمة إذ كانوا ينتظرون أصعب خبر يمكن أن يسمعوه وهو موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا به أعظم بشارة إنها الابتسامة الحق، وكل ما فيها حق، لأنها خارجة من فم الحق من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشهد أن «مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ»[(٢)].

إنه لا بد من النظر الواقعي العظيم لتلك الواقعة بآلامها وظلمات اللحظات التابعة القادمة القاتمة ففي هذه الأثناء نزل الستار.. وهم ينتظرون أصعب مصيبة، وما أبلغ قول أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيها وقد جمعها في كلمتين: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ».. أنتم قفوا عند دار منتهى سعادتها التبسم، واثبتوا على الحق حتى لو سمعتم الخبر بعد قليل، وأنا متقدمكم إلى دارٍ كلها أفراح وقمة سعادة لم تتذوقوها، ورمزها الضحك.. فاصبروا، وصابروا، ورابطوا، واثبتوا حتى نلتقي في تلك الدار لتكون السعادة الأبدية.. فأي تعاهد مثل هذا، وأي تثبيت على الحق مثل هذا، والذي قاله الله عَزَّ وَجَلَّ من قبل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

(١) رواه مسلم (١٩٠).
(٢) رواه البخاري (١١٢٠).

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الحكمة الرابعة عشرة: إنما التوجع عند الأهل: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»:

كان رسول الله ﷺ في بيته يتوجع ويوعك كما يوعك الرجلان، وهكذا هو طبع الرجل في بيته والزوج مع زوجته، لكنه الآن في مقام الإمام.. إذ هو يعلم أن الموت أصبح منه قريبًا.. وربما هي ساعات أو خطوات.. فكان ما رواه أنس رضي الله عنه: فَنظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا. قَالَ: فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَارِجٌ لِلصَّلَاةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ. قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَرْخَى السِّتْرَ. قَالَ: فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ»[١].

هنا يُعلِّمهم رسول الله ﷺ أن يكونوا رجال الموقف، ويكونوا في كل موقف كما يحبُّ الله ويرضى.. فالتوجع ليس مجاله في هذه اللحظات، ومَن تحمَّل الأمانة فليكن إمامًا في كل موقف، كيف وهذا رسول الله ﷺ إمام كل إمام..

وأن لا حزن على ذهاب الدنيا وانتهاء العمر، بل العبرة بحصاد العمر.. وأي حصاد مثل حصاد رسول الله ﷺ.. والشاهد هذا المسجد، وعمارة هؤلاء الرجال للمسجد.. الشاهد الأُسر التي حول المسجد.. الشاهد المجتمع القدوة.. المجتمع المتآلف الملتف حول المسجد... المتآلف المجتمع المترابط.. المجتمع الواحد بكل الاختلافات التي فيه.. الشاهد الجزيرة العربية من حول مجتمع المدينة.. الشاهد هو الفيض المبارك من هذه القرية التي تأكل القرى أكلًا أي بالنور والهدى، كما قال النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»[٢]..

(١) رواه مسلم (٤١٩).
(٢) رواه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢).

فَنَظْرَتُهُ كانت لهذه الأعداد المباركة في المسجد، فكانت ابتسامته أولًا، إلا أن اتساع النور في انتشاره هذا ليس بالقليل، بل هو الشاهد على أن هذا النور ذاهب إلى أبعد وأبعد.. وإلى كل نقطة ظُلْمة فيضيئها «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»، أو «تَبَسَّمَ ضَاحِكًا» كذلك لاتساع النور وإن بَعُدَ الزمان.

الحكمة الخامسة عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: المساجد الثلاثة:

من هذا المسجد إلى المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: هذه حالة يعجز الإنسان عن الإحاطة بمعانيها مهما غاص واستخرج.. ومهما شرَّق أو غرَّب، فرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الإطلالة القصيرة حمد الله على هذا المسجد الذي بناه، فكان كل ما خرج من هذا المسجد له هو صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلى الأخص الرجال والنساء، فتبسم على هذه الدار دار الإيمان، المدينة التي احتضنت المسجد بمَن فيه فامتد تبسمه.. وامتد بصره صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأول حاضر هنا - إذ الشيء بالشيء يذكِّر - هو المسجد الحرام.. ويذهب الظن عند البعض هنا مباشرة إلى خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وأنه ربما فكر المرء بأن تبقى كل الأجور لخليل الرحمن!

ولكن الحقيقة الأعظم من هذه أن يحمد الإنسان ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على هذه الهجرة المباركة التي أُخرج بها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جوار المسجد الحرام وأهله ومعه المهاجرون إلى المدينة وأهلها المؤمنون... ومن ثَمَّ فمن هذا المسجد مسجد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانت البقعة الأولى للأمة فعليًّا على الأرض.. ومن هذه البقعة انطلق الإسلام للدنيا.. ومن هذه البقعة فتحت مكة.. ليطهَّر المسجد الحرام إلى يوم القيامة، ويُزال ما عليه وما حوله أكثر من ثلاث مائة وستين صنمًا. قال الله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

﴿٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:٨-١٠].

ومن هؤلاء الرجال سوف ينطلق هؤلاء الأصحاب المباركون إلى المسجد الأقصى، وهذا هو ما كان... فهل الفرح بالفتوحات، أم الفرح بالأجور الباقيات.. إنه كل ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحكمة السادسة عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: كله في ميزان حسناته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

من هذا المركز العظيم من حيث هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومسجده العظيم، وعلى الامتداد البعيد البعيد المتواصل إلى يوم القيامة... كيف أصبح عمل كل عامل سبقه أو لحقه في ميزان حسناته.. نعم حتى مَن سبقه من العالمين والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فرغم أنهم بلغوا الرسالات وأدوا الأمانات، ولكن ما من أحدٍ بقيت له حسنات إلا جعلوها من بعده مشوهة محرفة، فيها ما فيها من الخير، ولكنه اختلط - فإن الشياطين نعوذ بالله منها - لم تترك شيئًا.. وأعظم شاهد على هذا هو حال البيت العتيق وما آل إليه؛ إذ تحوَّل من منارة للتوحيد إلى مقر للشرك وعبادة الأصنام في الأرض، وقد قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ. وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً. قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي**

لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ. وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ، وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ»[(١)]، والله عَزَّوَجَلَّ يقول في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، فلولا هذا البيان ما عُرفت سنن الأولين ولا بانت... فكان البيان في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت هذه الأبعاد العظمى لما أحدثه على يديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفضله على الأولين والآخرين حاضرة بين عينيه، وهذه هي سُنَّته لـمَن حضر أجله؛ أن يذكر أحسن عمله ليعظم حسن ظنه بربه، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[(٢)]، فإذا لم يكن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه اللحظة لحظة الاستذكار بل التذكير له من ربه سبحانه فتذكر تمام التذكر الآفاق البعيدة البعيدة من بحور الحسنات التي لا يحصيها إلا الله سوف تمتد إلى المنتهى.. آفاق تبلغ كل لحظةٍ السماوات.. آفاق لا تحصيها إلا سجلات ما لا يحصى من الملائكة في الليل والنهار لا والله.. فالأمر فوق كل تعبير، وأبعد من كل تصوير، وكلها منطلقها من هنا.. كلها جمعها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ».

الحكمة السابعة عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: سينقطع النَّفس ولن ينقطع العلم والهدى والنور:

حين لا يمكن إلا الإشارة؛ فالكمال في إشارته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لم يكن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الموطن يستطيع الكلام، ولو استطاع لأسمعهم صوته لكي يطمئنوا عليه أكثر، ويشرِّف أسماعهم بغذاء لم تتذوق مثله أبدًا من كلام الله سبحانه، ومن صوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكريم، ولو استطاع الكلام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أشار إليهم إشارة، فقال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ»، إذًا فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يلتزم الجانب السلبي إذ هو لا يستطيع الحديث، ولم يسكت



(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) رواه أحمد (١٦٠١٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٣٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.



بحجة شدة المرض واقتراب الأجل، لأنه لا يقوى على الكلام... كيف وهو مَن قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ**[1] **فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»[2]...

وهكذا بلغهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كونوا على العهد الذي عاهدتموني عليه يوم أسلمتم، فبلغوا ولا تتوانوا في البلاغ؛ كما في الحديث عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[3]، وفي الحديث: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[4]، وفي الحديث: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[5]، لا ينبغي أن تؤخذ هذه الأحاديث من دون صبغتها، فصبغتها السلام، بل صبغتها الابتسامة.. أما أن تأمر بشوكة الأمر بالمعروف وأنت في الحقيقة لا شوكة لك فذلك من قصور العقل والحكمة.

الحكمة الثامنة عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: شهادة صُحبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

هنا طلع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صحبه والحال كما لا يخفى على أحد فأمرهم ونهاهم.. فأمرهم بإتمام الصلاة ونهاهم عن قطعها...

الذي طغى اليوم على كل شيء وفاض طوفانه عند أصحابه.. حتى تركوا الأهل والعيال، ولم يأبهوا بما فات وما هو آت.. إلا صحة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) فسيلة: نخلة صغيرة.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (١٧٠٩).
(٤) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.
(٥) رواه مسلم (٤٩).

وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم تمام العلم أن الدافع لكل هذا هو حبُّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوب أصحابه.. وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدار محبته في قلوبهم إذ أرادوا أن يقطعوا صلاتهم وهم لا يعلمون، وذهلوا عن صلاتهم في محبته ومحبة رؤيته، وفرحتهم بإشراقته عليهم... متشوفون متشوقون.. هذا وهم أعظم الناس معرفة بأن الصلاة خير موضوع، وأنها عمود الدين!

فهذا الحب رسالة موجهةٌ للعالم كله عن صدق الاتباع، وعمق الاقتناع، وذروة تشرُّب الحب الذي لا يدانيه ولا يقاربه حب الوالد لولده، ولا حب الأم لولدها، ولا حب أحدٍ أحدًا.

وهذه وحدها كافية، وشهادة وافية على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، وأن الكتاب الذي أنزل عليه حق.. وأن ما جاء به وعنه حق، فإذا لم يظهر الحق من أصحابه المباشرين فمتى يظهر؟ وإذا لم يظهر الحب في الولاء له - وهو في مرض موته - فمتى يظهر..

ولهذا فقد بقي هذا الحب لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرثًا وشوقًا لمَن جاء من بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى يوم الدين.. وبقي أصعب ما يسمعه المسلم في حياته هو حديث وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»(١).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْـمَصَائِبِ عِنْدَهُ**»(٢).

وحبهم له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس عاطفة وداع: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ جيدًا في وجوه أصحابه الحب الذي ينبعث اليوم خوفًا وإشفاقًا من أصحابه على فراقه.. يقرؤه في حياتهم، في قاماتهم المنكسرة، وأحوالهم المبعثرة، ووجوههم الذابلة المتحسرة..



(١) رواه مسلم (٢٨٣٢).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦٧١٨)، وصححه الألباني.



كيف وقد رأى رسول الله ﷺ ذلك الحب فيهم في جميع الميادين من قبل، وفعلوا من أجل هذا من الفداء ما لم يفعله أحد من العالمين.

وشهد من وجدوه بين القتلى الإمام بن الربيع رضي الله عنه، وقد جاءه رجل من قومه فقال له: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ، أَفِي الْأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟ قَالَ: أَنَا فِي الْأَمْوَاتِ، فَأَبْلِغْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكَ: جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَأَبْلِغْ قَوْمَكَ عَنِّي السَّلَامَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ سَعْدَ ابْنَ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ إِنْ خَلُصَ إِلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ[1].

وهذا الحب كان له أساس حق، ومن أسس ذلك هو مقدار العلم الذي علَّمهم إياه.. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فالصحابة رضي الله عنهم لم يصرخوا حين رأوه ﷺ، ولم يتركوا صلاتهم، ولم يهيجوا.

الحكمة التاسعة عشرة: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: من أعجب أعاجيب الوحي هذه الابتسامة:

لا يغيبن عن ذهن أحدٍ أن هذه الكلمة «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ» جاءت بعد ختم الرسالة وتمامها إذ أنزل الله عز وجل قبلها القرآن كله وختمه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، إذًا فهذه اللحظة الفارقة في عمر الرسالة تحتاج إلى حكمة لا تبلغها الكلمات.. ولا تقدر عليها المطولات، ولا تجمعها المختصرات ولا شروحاتها.. فجاء الوحي بهذا.. ووالله إنه لوحي، وإنها من جوامع الكلم وإن لم يكن بها كلام.. ومن جوامع العلم والحكمة وإن لم يتحرك بها قلم، ولا نطق بأحرفها لسان.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٩٥).

إذ هذا الموقف يحتاج إلى خطاب يشمل بلاغ الموجودين الحاضرين، وقد تحدثنا فيه هذا من جهات عدة ومتنوعة، وقلنا: نصيب هذا الأساس في قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فَتَبَسَّمَ**»، وأما الشق الآخر فهي حمل الرسالة للعالمين.. وكيفية أداء الرسالة، ونوعية الخطاب للعالمين، ونوعية العَرْض على العالمين..

ولا حق لأحدٍ أبدًا أن يكيِّف المسألة كما يشاء في بلاغ الإسلام، ولا حق لأحدٍ أن يصبغ الإسلام بصبغته هو النفسية، أو يُحمِّل الإسلام صبغة قومه، فلْيقدَّم الإسلام كما هو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في آخر ظهور له وكفى.. باسمًا يضحك.. ولْيقدَّم الرفق على كل شيء.. وليقدم اللين والرفق على العنف والقسوة، وليقدم الحب والمواصلة على المفاصلة والمقاطعة، وليقدم الإسلام للأمم على حقيقته، وحقيقة غايته هو أنه يريد لكم أيها الناس حياة كهذه... حياة منيرة سعيدة ناعمة منعمة ناجحة، كما هو جميع ما يمكن أن تقرأ فيها وجه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «**ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»، وهو صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أعلم بما سيمر به الإسلام.. وأعلم بالاجتهادات التي ستكلف الأمة كثيرًا.



الفصل الرابع:

هدايات الابتسامة



تمهيد: هدايات الابتسامة إلى أركان الإيمان، وإشاراتها إلى أركان الإسلام:

ماذا في هذه الابتسامة من مقامات لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإشاراتها إلى العبادة، وتطبيقها في هذه الحياة.

لقد أنارت لي - والله - ابتسامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّى نظرت وإلى أي طريق توجهت.. فرأيت بنورها: أولًا شهادتها على أركان الإيمان، ورأيت شهادتها على أركان الإسلام.

فبادرتني نفسي: لا والله، لا يُقال هذا في حق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما إحسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ركنٍ من أركان الإيمان، فقلت: وماذا يعني الإحسان في العبادة، أو في الإيمان عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فتحيرت - والله حقًّا -، لكن بادرني الجواب بأن الإحسان مقامات، ودرجات، والمنتهى في الخلق والتمام إنما هو لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإيمان، أو في العبادة، أو في حياته.. كيف وهذه آخر لحظات حياته، وهو في ذروة الاشتياق إلى ربه، إذ استجاب الله دعاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ كان يدعو ربه: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»(١)، وهذا وقت بلوغ الاشتياق إلى منتهاه.

فالحقيقة هي العجب كيف ضبط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، وسيطر على عواطفه، ومشاعره، وحسه، إذ هو يعلم أنه سيحق اللقاء الحق، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق بالحق

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وأحمد (١٨٣٢٥)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يتجزأ من الشروع في الرحيل، وكلها في رعاية الله ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]، يا مَن ترحل إلى رعاية الله.

هدايات الابتسامة:

الهداية الأولى: هداية الابتسامة لنا إلى الإيمان بالله والرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ:

إنه الإحسان في الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هو سيد [مَن رضي الله عنهم]، كما أنه سيد مَن [رضوا عنه].. وهل من دلالةٍ على شيء أكبر من هذا الابتسام في هذا الوقت القصير والأخير؟! ولنتدبر هذه الآية العظيمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣،١٠٢]، وهنا جاء البيان من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وذلك في الحديث الذي روته أم المؤمنين عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ: لَا يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ، يَقُولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ الْآيَةَ [النساء:٦٩]، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[(١)]، هنا نعرف إقبال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وكيف هو.. هنا نعرف الجزء الأخير من قوله: «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»[(٢)] كما هو الذي ينتظره بعد هذا اللقاء.. فأي عَالَمٍ يعيشه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهو بيننا.. ونحن لا نرى إلا أنه بكليته معنا... ألا إنه ابتداء التكشف فيما نحتمل معرفته و ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].. تثبيتًا لقلوب المؤمنين.

الهداية الثانية: الهداية إلى الإيمان بالمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ لِي

(١) رواه البخاري (٤٤٣٥).
(٢) رواه البخاري (٧٥٤).



أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْـمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»[١].

وفي رواية: «**أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْحَاشِرُ وَالْـمَاحِي وَالْخَاتِمُ وَالْعَاقِبُ**»[٢].

إن المقصود هنا هو شهادة الابتسامة على الإيمان بالمرسلين.. وهذه الشهادة لنا نحن، وليس لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمعاذ الله من ذلك، وهو خاتمهم، والآن يختم لخاتمهم بالرسالة ليختم به جميع الرسالات، إن أي واحد من المرسلين لا يمكن أن يدرك ما أدركه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ كل نبي من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليبقى بعد ما يبقى ما كان له أن يجتمع له ما اجتمع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى عهده هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو بهذا الجمع ليس إلى أي أحد من المرسلين إلا لخاتمهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالكل سبقه، وما بقي من نبي يلحقه، وهو القائل: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا، وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ، فَيَقُولُونَ: أَلَّا وَضَعْتَ هَا هُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ! فَقَالَ مُحَمَّدٌ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ**»[٣]، فهو الوحيد الذي شهد البنيان كاملًا، بما فيها عيشته مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والآن، وفي هذه اللحظة وقد أصبح هذا الركن على الأخص حسيًّا لا ريب فيه أبدًا، ولهذا نادت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ فقالت: «**إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ**»[٤]، فما عاد جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل بالرسالة على أحدٍ.. وكما قالت أم أيمن رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ**»[٥].

فابتسامته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحال ابتسامة تناسب عظمة هذه اللحظة التي يتم فيها العامل عمله على أحسن وجه.. فكيف ولا عمل في الخليقة أبدًا مثل هذا

(١) رواه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) باختلاف يسير.
(٢) رواه أحمد (١٦٧٤٨)، والطبراني في الكبير (١٥٦٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) واللفظ له.
(٤) رواه البخاري (٤٤٦٢).
(٥) رواه مسلم (٢٤٥٤).

العمل.. فأي شيء أنسب له من قول أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»[(١)]، و «تَبَسَّمَ ضَاحِكًا»[(٢)].

الهداية الثالثة: هداية من الابتسامة إلى الإيمان بالكتب:

القرآن هو رسالته، وهو سبحانه مَن أنزل عليه في آخر الأمر: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، والقرآن ما كان الكتاب الوحيد الذي أنزله على المرسلين، بل هو المصدق ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨].. وكيف لا يبتسم وقد جمع له جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ القرآن في آخر رمضانين كاملًا، وقرأ عليه القرآن في آخر رمضان كاملًا مرتَّبًا مرتين.. وجمعه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكتوبًا، وجعله في بيت حفصة أم المؤمنين، وامتلأ المسجد بالحفاظ للقرآن كاملًا أو أجزاء.. فأي شيء يستحق الابتسامة مثل القرآن، وأي فرح لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مثل حفظ القرآن كاملًا مقروءًا ومكتوبًا في بيته، بينما بقيت الكتب الأخرى فيها ما فيها، لكن الإيمان بها دون تفصيل حفظها أو تحريفها ركن من أركان الإيمان في دين الإسلام.

ثم بأي شيء سيقرأ أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ في صلاة الفجر اليوم ويجهر به.. وأي شيء عمر هذا المسجد المبارك مثل القرآن، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[(٣)].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ**

(١) رواه البخاري (٧٥٤).
(٢) رواه مسلم (٤١٩).
(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).



كَوْمَاوَيْنِ[١] فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ! قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»[٢].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ، فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السِّتْرَ، وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ»، أَوْ قَالَ: «فِي الصَّلَاةِ»[٣].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا وَنَحْنُ نَقْتَرِئُ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَفِيكُمُ الْأَبْيَضُ وَفِيكُمُ الْأَسْوَدُ، اقْرَؤُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمُ يُتَعَجَّلُ أَجْرُهُ وَلَا يُتَأَجَّلُهُ»[٤].

الهداية الرابعة: الإقبال العظيم على الدار الآخرة:

قد قلنا أول ما قلنا: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خطب الناس، وذكر لهم تخييره، فالأمر هنا ليس هو الإيمان باليوم الآخر؛ بل هو تقديمه الآخرة على الدنيا، وإقباله على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذا الموقف نفسه على الدار الآخرة.. فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين تبسم للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم تركهم، فإنما تركهم ليذهب في الحقيقة إلى موضع قبره.. أوليس قبره هو بيته.. وقبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روضة من رياض الجنة؛ أوليس هو القائل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ»[٥].

ثم إنه كما لاحظنا الأمر، فإقبال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدار الآخرة لم يطله

---

(١) كوماوين: عظيمتين.
(٢) رواه مسلم (٨٠٣).
(٣) رواه أبو داود (١٣٣٢)، وقال محقق جامع الأصول (٢/ ٤٦٠): إسناده صحيح. وقال الألباني (١/ ٢٤٧): صحيح.
(٤) رواه أبو داود (٨٣١)، وقال الألباني: حسن صحيح.
(٥) رواه الترمذي (١٠١٨)، وصححه الألباني.

كثيرًا، إنما هو لحظتان تتمثلان بفعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فتبسَّم يضْحَكُ**»، وأنه أشار إليهم أن أتموا صلاتكم.. وانتهى الأمر.. ورحل عنهم ليرحل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. فهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في لقاء الله، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راحل إلى لقاء الله في الدار الآخرة.. وما أدراك ما لقاء الله في تلك الدار!

الهداية الخامسة: هداية الابتسامة إلى الإيمان بالملائكة:

إذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ يقول عن عامة المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ! فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»(١)، فماذا ترى وضع مَن عرَّف الخلق بالملائكة، وجاء بعلومهم لأهل الإيمان تفصيلًا، وما معنى أن ينادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**»(٢)، إنه العالم الأعلى.

وهذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] لا يكاد ينقطع عن هذين المكانين الَّذَيْنِ يقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآن بينهما؛ بيته ومسجده.

الهداية السادسة: هداية الابتسامة إلى الإيمان بالمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

حين عُرج بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء كان فرح الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ به عظيمًا، وكان كل نبي يقول - من عظيم المفاجأة -: «**مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»(٣)، إلا آدم وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فقد قالا: «**مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»(٤)..

(١) رواه مسلم (٢٦٨٤).
(٢) رواه البخاري (٤٤٤٩).
(٣) رواه البخاري (٣٨٨٧).
(٤) رواه البخاري (٣٨٨٧).

فكم تراهم سيفرحون بمجيئه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم في الدار الآخرة، وكم سيكون فرحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم وهم العائلة الواحدة، وهو القائل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[(١)].

ألا ترى العائد إلى أهله بعد غياب سنين كيف يُحَدِّث نفسه بفرح وسرور قبل أن ينطلق وتظهر عليه علامات السرور، ونستكثر أن تكون من أسباب ابتسامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاء الأنبياء غدًا.. وهذا مؤذنه بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهتف قبيل رحيله: «غَدًا نَلْقَى الأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ»[(٢)].. وما هدأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وطيَّب نفسه عند الموت قول أكثر من قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَعَنِ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَجُلٌ آخِذٌ مَنْكِبِي، فَإِذَا عَلِيٌّ، فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ وَقَالَ: مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»[(٣)].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم فرح إخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمجيئه إليهم، وهو أشد فرحًا منهم.. ذلك أن أمانة النبوة كلها قد آلت إليه، وأصبحت بين يديه، وأنه هو الخاتَم والخاتِم.. هو الوحيد الذي عنده التقرير الأخير كاملًا.. عنده العلوم كلها.. عنده من البشائر ما لم يكن لغيره مثلها، ولا عُشرها.. عنده من بشائر هداية الخلق ما لم يكن مثلها.. عنده من علو شأن الإسلام - وهو الدين الذي جاؤوا به جميعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ما لم يحدث مثلها.. وعنده القرآن الذي أخبره بما جرى لكم يا معشر الأنبياء من قبله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. فكيف بلقائهم... وكيف لا تحضرون الآن كأول مَن يحضر من الأولين، وإذا لم يكن هو الذي [ابتسم يضحك] للقائكم قبل لقائكم فمَن

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٨١).
(٣) رواه البخاري (٣٦٨٥)، ومسلم (٢٣٨٩) باختلاف يسير.

يبتسم، وقد ثبت في البخاري أن آخر ما تكلَّم به النبي ﷺ وهو يستند إلى صدر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» كررها ثلاثا[1]. ثم مالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى[2].

الهداية السابعة: هداية الابتسامة إلى الرضا بقضاء الله وقدره:

رسول الله ﷺ منذ متى وهو في هذه الأوجاع؛ أوجاع السموم التي اشتد مفعولها وهذا أوان فتكها، وضربتها القاطعة كما عرف النبي ﷺ ذلك أول الأمر، فقال: «**مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»[3]، وهو ﷺ غير نادمٍ أبدًا على ذلك الحدث... لا والله، فليس هذا فحسب، بل ولا الضر فحسب.. فإن هذا هو التقرير الأخير في هذه الابتسامة العظمى «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»[4].

وكيف لا يبتسم يضحك وهذا السم الذي أكله في خيبر - وهو السبب المباشر لوفاته - قد أضاف له مقامًا عظيمًا؛ وهو الشهادة، ذلك أن النبي ﷺ قال: «**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[5].

هكذا واجه رسول الله ﷺ في حياته أصعب المصاعب.. إلا أنه ﷺ كان راضيًا عن قدر الله حين اختار الله ولده الوحيد ورحل، فقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ**

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٣٦ حديث ٤٤٤٩)، ابن هشام- السيرة ٣/ ٣٢٩ بإسناد صحيح.

(٢) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٤٢ حديث ٤٤٦٣)، مسلم- الصحيح ٤/ ١٨٩٤ (حديث ٢٤٤٤).

(٣) رواه البخاري (٤٤٢٨).

(٤) رواه البخاري (٧٥٤).

(٥) رواه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

لَمَحْزُونُونَ»[١]، ومع هذا فالابتسامة اليوم شيء آخر، وإن كانت المصيبة اليوم في النفس.

ولو أن الحياة عادت، والبعثة ابتدأت من جديد، هل من شيء سيضيفه رسول الله ﷺ؟! **والجواب: مستحيل**.. كيف وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، إذًا فماذا بعد الكمال والتمام إلا الرحيل إلى موعود الله تعالى، الرحيل بابتسامة لما جرى، والابتسامة لما هو آتٍ، ولذا كانت كما قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»[٢].

بل إن انتقال النبي ﷺ إلى الدار الآخرة أعظم فرح لأهل الآخرة، وأعظم الناس فرحًا به هم إخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ... ذلك أنه السيد، وعادة ما تكون أعظم الأفراح بحضور السيد.. ويكون الاستقبال للسيد أعظم من استقبال الناس للعامة، كما أمر هو ﷺ الناس بالقيام لسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حضر وقال: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ، أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ»[٣].. والقيام محصور فيمَن حضر ذلك المجلس، أو للأنصار وحدهم، أو لقومه الأوس وحدهم، لكن علة القيام أنه «سَيِّدِكُمْ»، بينما الرسول ﷺ يقول: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ**»[٤]، فدارٌ هذا ما ينتظره ومَن ينتظره فيها كيف لا يبتسم للانتقال إليها؟!

الهداية الثامنة: هداية الابتسامة إلى الصلاة:

حين قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[٥]... كان التصور

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) بنحوه.
(٢) رواه البخاري (٧٥٤).
(٣) رواه أبو داود (٥٢١٥)، وصححه الألباني.
(٤) رواه ابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني.
(٥) رواه أحمد (١٤٠٣٧)، والنسائي (٣٩٤٠)، والحاكم (٢٦٧٦)، والبيهقي (١٣٤٥٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

كله منحصرًا على أن صلاته نفسه فيها قرة عينه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا حق إلى أن جاء هذا المشهد العظيم الحاضر ورأينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفًا – بحدود قوته التي تحمله – وابتسامته تشرق بها الدنيا من حوله لأجل هذه الصلاة، نعم هي كانت في قلبه، وقبلته، وصدره ووجهه ووجهته، ولولا أنْ أخبرنا عنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عرفناها.. فاليوم تتمثل في هذه الحالة «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**».

ولولا أن هذا هو أبهى منظر يحبه قلبه ما أعدّه الله عَزَّ وَجَلَّ ليكون هو الحالة الأخيرة التي يراها من صحابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

واليوم هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيع أن يصلي معهم، لكنه يرتاح بها، فعرفنا معنى جديدًا ونوعًا جديدًا من راحته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما كان يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبلال: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»(١)، وهي الراحة ظاهرة على ابتسامته المشرقة، واليوم يعامله ربنا سبحانه بقدره ولطفه، كما كان يحب، وما كان اتخذه منهجًا، فقد «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»(٢)، وها هي الابتسامة أشرقت من أول نظرة إلى هؤلاء الكرام في صلاتهم.. فإنه إن لم يستطع أن يصلي بهم فتقرَّ عينه، فإنه يسعد بالمصلين، ويذهب عنه ما حزبه من أمرٍ لا يعلم به إلا الله، ويظهر ذلك لكل ناظر إليه مبتسمًا يضحك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنها دروس عظمى لهذه الأمة وللعالمين أجمعين، فإن مَن جعل الله قرة عينه في الصلاة وهو في أشد الموقف، وسوف تُثَبِّته الصلاة إذ هو أحوج ما يكون للتثبيت.. وهذا مقام ما عرفه الخلق بعد، وهو أن تكون قرة العين بمجرد النظر إلى المصلين؛ فهو يصلي وأنت تعيش صلاته.. وهو يصلي وأنت تعبد الله كأنك تراه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.. فهذا هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذه الابتسامة وهم يصلون إشارة إلى عظمة أمر الصلاة، وعظمة إقامة



(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني.

الصلاة في جماعة.. وأن سعادتكم وبقاءكم مرتبط بالصلاة.. فهو المشهد الذي تبسَّم له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وإنه لو نقضت أركان الإسلام ركنًا ركنًا فاثبتوا على الصلاة، وهو من معاني حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**»[1].

الهداية التاسعة: هداية الابتسامة إلى الزكاة:

ومن خلال هذه الابتسامة جاءت الإشارة إلى الزكاة واضحة جلية إذ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[2]، والزكاة تدخل في معنى الصدقة، وقد قال الله عنها: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وكيف والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل يوم وفاته أخرج كل ما يملك وتصدق به، فأعتق العبيد، وأنفق كل ما عنده، وقال: «**لَا نُورثُ وَمَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»[3]، فجاءت هذه الصدقة إذ لا صدقة في الحقيقة، صدقة على مَن في المسجد جميعًا، كل أخذ منها ما يُسْعِدُه وتقرُّ بها عينه، ثم تروى هذه الابتسامة للعالمين فتكون صدقة على الناس أجمعين، فاللهم اشهد أنها وصلتنا، وأنها أطيب وأسعد صدقة مرت علينا في حياتنا.. واللهم بلغنا حتى نلقاه، فنأخذها منه مباشرة مع كوز ماء أبيض من الثلج، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، نشربه من حوضه، ونتناوله من يده هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان شيء يجعل وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتهلل كأنه مذهبة وكأنه القمر مثل أن يفرج عن مهموم، أو مهمومين، أو مكروب، أو مكروبين، أو يدخل السرور على إنسان، بل وحتى الحيوان، ولقد مرَّ بنا حديث العرنيين الذي اشتد عليهم الأمر حتى لبسوا

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٦٠)، والطبراني في الكبير (٧٤٨٦)، وابن حبان في صحيحه (٤٨٦٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده جيد.

(٢) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري، الأحاديث ٦٧٢٦- ٦٧٢٨، ٦٧٣٠)، وانظر ابن سعد- الطبقات ٢/ ٢٣٧- ٨، ٣١٦- ٣١٧، من عدة طرق يتقوى بعضها ببعض ولها شاهد من حديث البخاري أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك عند موته عبدًا ولا أمة.

جلود النمور، وما تغيَّر وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى كان أمامه كومان عظيمان من الطعام ومن الثياب، فقال الراوي: «حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ»[(١)]، وكما في حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ**»[(٢)].

فلقد نابت والله تلك الابتسامة عن كل ذلك يا رسول الله.. ولقد دخلت بيت كل مسلم، ونرجو أن يشرح الله بها صدور مَن تبلغه هذه الابتسامة نورًا وهدىً، فهي - والله - دعوة عظيمة إلى الله.

الهداية العاشرة: هداية ابتسامة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الصيام:

إن لهذه الابتسامة من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إشارة وأي إشارة للصيام؛ أوليس اليوم هو يوم الإثنين الذي سنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صيامه.. أليس هذا هو فجر أول هذا اليوم، وهو أول وقت الصيام..

ألم يخبرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الأعمال تُرفع إلى الله؟ فكيف يتبسم هذا اليوم الذي لطالما رفع الله له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صيامًا معتادًا سنين عديدة.. وها هو اليوم الذي سوف تُرفع فيه روحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مبتسم كالفجر في هذا اليوم العظيم.. ثم ألم يقل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ**

(١) رواه مسلم (١٠١٧).
(٢) رواه الطبراني في الصغير (٨٦١)، وصححه الألباني.



بِصَوْمِهِ»[١]، فهو ﷺ محاط بفرحتين هذا اليوم العظيم، فمتى صعدت روحه فلتصعد، فإن الأفراح به محيطة.. وقد ابتدأت الأفراح منذ فجر هذا اليوم، والحمد لله رب العالمين.

الهداية الحادية عشرة: هداية ابتسامة رسول الله ﷺ إلى الحج:

الحج كان هو المجمع الأعظم لأمة محمد ﷺ.. وهؤلاء الجمع الكرام الذين في مسجده هم ممثلو أمة محمد ﷺ رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد كانت بداية مرضه ﷺ بعد عودته من الحج في ربيع الأول، ووفاته ﷺ في الثاني عشر من ربيع الثاني، فهو ﷺ ودَّع الأمة كلها في الحج الأكبر.. وخطب فيهم تلك الخطبة التي ما سمعت ولن تسمع الخلائق بمثلها أبدًا[٢].

فكان الحنان والإحسان والرفق العام بالأمة كلها هناك، وكان التيسير الأعظم في الأحكام حتى كان شعار الحج: «**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ**»[٣]، وهناك أكثر ما يكون الالتقاء بالناس كمجاميع في الطرقات، وفي المناسك، وفي كل مكان، فكان الأصل في هذا السلام، وأن تلقاهم بوجه طلق وابتسام، وكان هنا في هذا المسجد ليس إلا الأيتام.. ولولا هؤلاء الذين في المسجد رضي الله عنهم ما بلغ الإسلام الذين كانوا في الحج..ولولا هؤلاء الذين في المسجد رضي الله عنهم والذين كانوا في الحج ما بَلَغَنا اليوم الإسلام، فرضي الله عنهم أجمعين.

الهداية الثانية عشرة: هداية ابتسامته ﷺ لمقام الصحابة رضي الله عنهم:

أليست العبرة بالموقف الأخير.. أليس الموقف ناسخًا لما خالفه من قبل، أليس الموقف الأخير مثبتًا ومؤيدًا لكل الحق الذي قبله.. فالموقف الأخير هو حكم الله عَزَّوَجَلَّ الأخير في وأعظم ما تراه من تطبيق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾

(١) رواه البخاري (١٩٠٤).
(٢) عندي فيها كتاب، أسأل الله أن ييسر طباعته والانتفاع به.. اللهم آمين.
(٣) رواه البخاري (١٧٣٦).

[النجم: ٤٣]، هو قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»[(١)].. كيف والتشريعات كلها اجتمعت هنا في هذه اللحظات التي حلَّ فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعاد عنهم إلى لقاء الله.

أليست ابتسامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجهه الكريم الشريف في وجوه أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة؟

أليست هذه الابتسامة هي حكم الله الأخير، وحكم رسوله الأخير لهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟! فليكونوا ما يكونون... فكيف هو الحكم الأخير؟ وهل كانت هذه الابتسامة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا لأنهم هم وحدهم في ذلك العالم جعلوه في كل موقف يبتسم.. هم الذين نصروه في غزوة بدر.. وهكذا في كل موقف بدون حدٍّ ولا عدٍّ... ألم يكن هذا الموقف العظيم عليهم منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحسانًا، ولهم شكرًا وعرفانًا.. ولجميع أعمالهم وأحوالهم ميزانًا، وفي وجوه كل مَن حاول الانتقاص منهم حرابًا، وسيوفًا، وسهامًا؟!

رضي الله عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالابتسامة أساسًا لهم، وهم مَن رأوها وكادت تفتنهم عن صلاتهم، ثم هم رووها كما رأوها.. ويريد الحانقون عليهم أن يدخلوا بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبينهم.. فمَن يملك هذا؟! ومَن يملك أن يرد ابتسامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ذهبوا هم بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتحقوا به.. وآخر الأمر أنه تبسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجوههم.. فهنيئًا والله لهم ورضي الله عنهم.

أيتها الأجيال اعرفوا حق هذه الابتسامة عليكم.. اقرؤوا ابتسامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تحرِّفوها وقد وصلتكم روايتها لا رؤياها..

إنها ابتسامة في وجوه رجال تقول للأجيال كلها وللعالمين: هؤلاء أحبابي

(١) رواه البخاري (٧٥٤).



وخاصتي، هؤلاء مَن ليس بيني وبينهم إلا المحبة والفداء والصفاء والنقاء، وابتسامتي التي هي أطهر من الطهر وأنقى من النقاء.

ابتسامتي لهؤلاء تقول لكم أيتها الأجيال: إن ديني لن يصل إليكم إلا عن طريق هؤلاء.. هكذا اختارهم الله لي، وهذا اختياري للعالمين.. وليس عندي سواهم ولا غيرهم.

ابتسامتي هي لكم أيتها الأجيال: أن سيرتي الكريمة كلها كانت مع هؤلاء الكرام.. وهؤلاء هم حملتها إليكم، وهم مَن أداها حق أداءها.

ابتسامتي في وجوه هؤلاء لأنهم مَن سيبلغكم كلام الله الذي أُنزل عليَّ.. وهم مَن وفَوا لي ولكتاب الله أعظم الوفاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ابتسامتي لهؤلاء تشهد أن هؤلاء مَن بذلوا كل شيء لأجل الله وأجلي، وأنهم أهلكوا الأموال والأولاد والأحباب وهجروا الديار.. وما هؤلاء الكرام الذين أمامي إلا مَن بقي ممن رحل في أول العهد حتى آخرهم.. فما انقطع رحيلهم عن هذه الدنيا.

ابتسامتي إليكم: اذكرهم إذا كنتم مسلمين.. اذكرهم إذا كنتم عادلين.. ومتقين.. وإنسانيين، فهؤلاء مَن ردوا انحراف الأمم كلها.. وكلما رأيتم الإسلام في بلاد فترضوا عنهم، فهم مَن حملوه إلى كل مكان، مشيًا، وعلى الإبل والخيل، وركبوا البحار، وركبوا الصعاب.. ثم مَن جاء من بعدهم ممن تربَّى على أيديهم وأيدي مَن بعدهم.. وكل ما ترونه في ميزان حسناتهم وربي يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٨،٩].

ابتسامتي لهؤلاء تحديدًا.. فإن كنتم ممن يترضى عنهم ويحبهم ويقرّ بفضلهم ويمشي على طريقهم فابتسامتي لكم، وإلا فأنا بريء منكم حتى تعودوا لهم.

ما سيقوله المفترون على أصحاب رسول الله ﷺ ورغم أنه بهتان عظيم إلا أن هذه الابتسامة قد نسفت كل ما نفوه نسفًا.

الهداية الثالثة عشرة: الهداية إلى اتخاذ الأعمال ديمة:

«**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»: هذا اليوم هو يوم الإثنين، وقد اعتاد رسول الله ﷺ صيامه، لكنه اليوم في أشد مراحل المرض وأقساها، وهو الذي كان يقول ﷺ: «**تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»(١)، فالنبي ﷺ لم يقل: أنا أحب أن يرفع [صيامي] يوم الإثنين والخميس، إنما قال: «عَمَلِي»؛ أي مع الصيام، إذ الصيام بخلاف عموم الأعمال؛ فالصيام يشمل النهار كله بما فيه عبادات في أجزاء النهار، أو أذكار، أو أعمال حياة، أو عادات، أو مباحات، أو نوم، أو مزاح، أو ما إلى ذلك، فكله يفعل ويسجل، ويسجل معه الحالة والوضعية، والوضعية هنا هي الصيام، ومن الليل يأخذ الصيام أبركه؛ وهو السحور في السحر، ثم حديث يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»(٢)؛ فالصوم مقبول، وهو خاص بالله، وهذا الخاص يحمل ما كتب معه، ويرفعه، ويحوله إلى سجل القبول، ولعله إلى سجل الخصوصية، لأنهما لا يفترقان؛ إذ رفعا معًا، فلا أحسب أنهما سيفترقان بعضهما عن بعض.. إلا أن تكون معصية، فهذه في الأساس لا تُرفع، فالرفعة مخصوصة بالعمل الصالح؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] والعمل السيئ والإثم لا يرفعه الله عَزَّوَجَلَّ أساسًا.

ومن هدايات الابتسامة على أن عمله ﷺ ديمة هي هذه الابتسامة التي جعلها النبي ﷺ في حياته، ولقاءاته، ومع الناس كافة ديمة، وها هو اليوم على العهد مع الابتسامة المباركة «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**».



(١) رواه الترمذي (٧٤٧)، واللفظ له، وابن ماجه (١٧٤٠)، وأحمد (٨٣٤٣) بنحوه، وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١).



فحاله ﷺ اليوم والصائم سواء بسواء في رفع عمله، إلا أنه ﷺ لا يأمل أن يُرفع عمله وهو صائم فحسب، بل يأمل أن تُرفع روحه ﷺ وهو صائم، أو أفضل من الصائم... وإياك أن تقول: إن رسول الله ﷺ غير محتاج لهذا.. فإنه ما من ميدان إلا كان هو ﷺ قد ارتقى الذروة.. ثم إن النبي ﷺ يقول: «**وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[1]، والآن يجمع الله ذلك كله لرسوله ﷺ.. فسبحان الله؛ كيف جمع الله ذلك كله وأكثر!

ثم هذه الصلاة هي رمز الديمة عنده ﷺ، وهو ﷺ القائل: «**اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ**»[2]، ويقول ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ**»؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨][3]، ولأنه ﷺ مريض شديد المرض؛ فإن ربه سبحانه لم يتركه في المرض الأخير في هذه الحياة على فراش المرض.. فبعثه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووهبه القوة الكافية ليقوم ويتحرك، ويرفع الستار، ويقف أمام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم يصلون.. ليشهد هذا المشهد الأحب إلى قلبه.. فتبسم، وأول ما يمكن أن يُفَسَّرَ به التبسم هو التبسم لأجل هذا الحال الذي أقامه الله له، وأراه الله عَزَّوَجَلَّ إياه، ولم يختمه سبحانه على فراشه فيكون من الفراش إلى القبر، ولكن من الصلاة إلى القبر، من المسجد إلى القبر، من التعاهد إلى القبر، من الإبلاغ بهذه الطريقة إلى القبر، من قرة العين إلى قرة عين، من الصحب الصالحين إلى الرفيق الأعلى.

الهداية الرابعة عشرة: هي الوصية وهي التواصي:

«**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»: اتخذوا لكل عمل ديمة.. وكونوا بكل ديمة سعداء فرحين

(١) رواه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١).
(٢) رواه ابن ماجه (٢٧٧)، وصححه الألباني.
(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٣)، وضعفه الألباني.



متواصين متواصلين بهذه الأعمال وهذه النفسيات كما أنتم تشاهدون الآن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآن «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ» وأنتم أعلم الناس أنها ليست ابتسامة للصلاة وحدها، إنما هي ابتسامة للمسيرة العظمى في الحياة كلها... ابتسامة لمواصلة هذه المسيرة.. ابتسامة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].. فسبحان الله؛ فلم تكن الساعات الوداعية خطابًا حماسيًّا ملتهبًا ملهبًا.. كلما فترت الجماهير عادت إليه فأيقظها، بل كانت ابتسامة، ولو سميناها [الابتسامة المعجزة] فوالله ما أكثرنا ولا بالغنا، وفي اعتقادي أنها معجزة شاملة معجزة من كل جهة، معجزة مثَّلت حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن تمثيل.

كانت هي الابتسامة، وهي الوصية، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ وماذا يعني هذا التواصي إلا الثبات والاستمرار؟! وماذا يعني الصبر إلا المرارة؟! ولكن هنا بعثها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلوة طيبة بالابتسامة، لئلا يفارق المنهج حلاوته حتى في أشد الظروف والحالات، وهل أشد من حالة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ هو «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»؟!

إنها الغرس الجديد، والعهد الجديد بالثبات والتثبيت، بالابتسامة الطيبة التي هي أخت الكلمة الطيبة، التي قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

الهداية الخامسة عشرة: هداية الابتسامة إلى الخُلق الحسن:

الخلق الحسن ليس نية مجردة في الصدور.. ولا هو رغبة صادقة في النفوس



فحسب، وإنما هو كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[2].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ**»[3].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[4].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ**[5] **بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ**[6] **الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ**[7] **وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»[8].

وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ سَعْدَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَهَا فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ[9].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ، آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا

(١) رواه أحمد (٢١٣٥٤)، والدارمي (٢٨٣٣)، والترمذي (١٩٨٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) رواه أحمد (٧٤٠٢)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.
(٣) رواه الطبراني في الصغير (٦٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٢٣١).
(٤) رواه الترمذي (١١٦٢)، وقال: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٥) الزعيم: الضامن.
(٦) ربض الجنة: ما حولها خارجا عنها تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدينة وتحت القلاع.
(٧) المراء: الجدل.
(٨) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني.
(٩) رواه مسلم (٧٤٦).



عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي»[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «**غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ**»[٢].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[٤].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْغَرْزِ[٥] أَنْ قَالَ: «**أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»[٦].

---

(١) رواه مسلم (١٥٦٠).
(٢) رواه أحمد (٣٦٧٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٣) رقم (١٦٤): رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُ إِسْنَادِهِ بَعْضُهُمْ مَسْتُورٌ، وَأَكْثَرُهُمْ ثِقَاتٌ.
(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وصححه الألباني.
(٤) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال الأرنؤوط: صحيح.
(٥) الغرز: ركاب كور الجمل إذا كان من الجلد.
(٦) موطأ مالك (٢/ ٩٠٢) رقم (١)، وقال محقق جامع الأصول (٤/ ٤): الحديث حسن بطرقه وشواهده التي تشهد له بالمعنى.



وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**»[١].

ليس الخلق الحسن ابتسامة، إنما الابتسامة هي واجهة الخلق الحسن الخارجية، التي تنبئ عن الخلق الحسن الكبير لصاحب هذا الوجه وذاك، وتنبئ عن القلب السليم والباطن الحسن له.. أرأيت كم للابتسامة من عظمة.. ومع هذا فالابتسامة جزء لا يتجزأ من الخلق الحسن، وما من خلق حسن إلا وهي زينته، وكماله، وتمامه.

ومن هذا الباب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[٢]، فهذه ليست للتحديد.. بل هذه أقل ما تكون، وهذه حالة واحدة فقط من الحالات في العلاقات، كما أنها الحالة الأولى، لأنه عند اللقاء، وإلا فهي تكون عند الوداع والفراق، كما هو السلام عند اللقاء، وعند الفراق، وتكون ما بين اللقاء والوداع، وما أجمل الابتسامة وأعلاها عند شدة الحوار، فإنها تطيب الكلام والنفوس، كما أنها تعلي صاحب الابتسامة عند الجدال والاختصام، وتكون الابتسامة عند التعامل، وتكون عند التعاقد، وتكون عند فشل التعاقد، وتكون عند البيع، وعند الشراء، وتكون عند التداين، وعند المطالبة بالدين، وتكون عند التقاضي؛ وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا، سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى**»[٣].

فليس لمسلم أن يترك الابتسامة بعد هذه الابتسامة النبوية العظمى في هذا الموقف الأعظم، حيث يتركها في حياته ولا يجعلها من عاداته، ويختار عليها مظهر العبوس، وهو يعرف أنه يُعرف بين الناس بهذا ولا يبالي.

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٢)، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٦).
(٣) رواه البخاري (٢٠٧٦).

الهداية السادسة عشرة: هداية الابتسامة إلى أنه خاتم الأنبياء:

«**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»: أن يكون النبي ﷺ نبيًّا من الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأنه سيد الأولين والآخرين، فهذا أمر عظيم ولا شيء مثله، إلا أن يكون هو خاتم الأنبياء جميعًا، فهذا أمرٌ ليس مثله شيء مطلقًا.. أن يكون هو اللبنة التي لولاها لما كان لهذا البناء فائدة باقية.. كما كان آل إليه حال الرسالات جميعًا قبل بعثته، وهذه الكعبة شاهدة وهي بناء أبي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلقد غدت المقر الأكبر لعبادة الأصنام في جزيرة العرب، ولذا قال النبي ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا، وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ، فَيَقُولُونَ: أَلَّا وَضَعْتَ هَا هُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ! فَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ**»(١). وفي الحديث: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْـمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»(٢).

«**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»: فلقد استقر الآن ختم النبوات فعليًّا.. وتم الختم عمليًّا بهذه الصلاة التي أقيمت لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذه الصلاة هي النظام الجديد لهذه الأمة.. فمَن يتقدم لهذه الصلاة اليوم فهو المقدَّم للحياة.. ولم يكن هذا اتباعًا لأمره ﷺ.. بل شاهده بنفسه، وأقرَّ الله به عينه، فتبسم ﷺ من هذا الحال العظيم، وأن هذا الأمر لن تتهاون فيه الأمة أبدًا في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومَن بعدهم إلى يوم الدين.. وأنه لن يكون منكر عند الأمة - مهما كان خلالها - أعظم من ادعاء النبوة، وكل دعوة للنبوة لا توشك أن تظهر إلا وُئِدت، وأن نظام الخلافة وإن انقطع فسوف يعود، ولكنه سيعود في الختام كما النبوة في الأختام.. وكل هذا هو ما أخبرنا به رسول الله ﷺ؛ فقال ﷺ: «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ،**



(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) واللفظ له.
(٢) رواه الترمذي (٢٢١٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.



ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ ثُمَّ سَكَتَ»(١).

ولكنها في آخر الأمر ستعود كما في الحديث خلافة على منهاج النبوة، ومن بيت النبوة، ومن أبناء رسول الله ﷺ من بني فاطمة عليها السلام كما في الحديث: **«الْمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي، مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ»**(٢).

وعندها يقول القائل: إذًا الآن قد آن لهذا الستار الذي أُسدل بذهابه أن يُفتح.. وصدق الله ورسوله ﷺ.

وهذا لا يخرج في ظروف عادية، بل في ظروف هرج ومرج شديدين، كما في حديث مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رضي الله عنه فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْمَهْدِيِّ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: هَيْهَاتَ، ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا، فَقَالَ: ذَاكَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: اللهَ اللهَ قُتِلَ، فَيَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى لَهُ قَوْمًا قُزُعًا كَقَزَعِ السَّحَابِ، يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ، يَدْخُلُ فِيهِمْ عَلَى عِدَّةُ أَصْحَابِ بَدْرٍ، لَمْ يَسْبِقْهُمُ الْأَوَّلُونَ وَلَا يُدْرِكُهُمُ الْآخِرُونَ، وَعَلَى عَدَدِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: قَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: أَتُرِيدُهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الْخَشَبَتَيْنِ، قُلْتُ: لَا جَرَمَ وَاللهِ لَا أُرِيهِمَا حَتَّى أَمُوتَ، فَمَاتَ بِهَا يَعْنِي مَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى»(٣).

إذًا فالمهدي لا يأتي من فرقة عقدية منحرفة.. ولا من جماعة إسلامية أو حزب

(١) رواه أحمد (١٨٤٠٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.
(٢) رواه أبو داود (٤٢٨٤)، وصححه الألباني.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٨٦٥٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

إسلامي، وليس عنده تنظيم، بل هو كما في حديث محمد بن الحنفية عن علي: «فَيَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى لَهُ قَوْمًا قُزُعًا كَقَزَعِ السَّحَابِ».

وأنه إذا خرج أعلن ذلك للناس صراحة، فعرفه جميع الناس أنه هو المهدي الحق، وذلك بتعريف الله لهم، وجمع الله عَزَّوَجَلَّ الناس، وسارت إليه الأعاجم قبل العرب إلا مَن حوله من العرب القليلين.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمُ ابْنُ خَلِيفَةَ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْـمَشْرِقِ فَيُقَاتِلُونَكُمْ قِتَالًا لَمْ يُقَاتِلْهُ قَوْمٌ** - ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا فَقَالَ - **إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ، فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللهِ الْـمَهْدِيُّ**»[(١)]، إذًا فأسعد الناس مَن لا يتردد في شأنه أبدًا، وكل بيعة تناقض طاعته فهي منحلة بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهكذا كانت «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**» شاملة للأول في هذه الأمة وآخرها.. فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَن في مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أفضل هذه الأمة بغير شك... إلا أن الفيض الأعظم للهدى على مستوى الأرض إنما يدخره الله وحده لنفسه سبحانه، ولذلك فاسمه المهدي وليس الهادي، والله سبحانه هو مَن تكفل بإصلاحه في ليلة، ولم يصلحه الله من ضلاله، وإنما كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فأصلح الله زوجه للولد والسعادة.. ولهذا اسم المهدي [خليفة الله]، ولهذا هو الوحيد الذي يتقدم إمامًا في الصلاة وفي غيرها على عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وحكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يتولى من أول نزوله، بل يبقى مع المهدي مع هذه الأمة، ثم إذا ما مات المهدي حكم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتقدم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو تقدم من أول ما نزل لكان في هذا شبهة كبيرة للنصارى وغيرهم أن يجعلوا ذلك تصديقًا لنبوءاتهم الكاذبة.

(١) رواه الحاكم (٨٤٣٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ووافقه الذهبي.



فاليوم والوضع هذا فإن رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس، بل هو معلم الناس بما قال: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[1].

الهداية السابعة عشرة: هداية ابتسامته ﷺ إلى محورية المسجد:

كان المسجد هو أول عمل عمله النبي ﷺ عند مجيئه المدينة، وبعده جاء بناء بيته ﷺ، فقد كان الأساس هو المسجد، فما كان الأساس هو بيته ﷺ، ولا بيوت الناس بما فيهم المهاجرين...

كما كان الختام بالمسجد.. والمسجد بيت الله، وبيت الله أولًا، فكان المسجد في الابتداء، وها هو المسجد الآن في الاختتام، فما كان لله أولًا، وما كان لله آخرًا، وما كان بين ذلك لله، وهو جميع الحياة.

وهكذا كانت عادته ﷺ إذا أراد الخروج من المدينة لسفر؛ صلى ركعتين في المسجد لله، وإذا عاد كان أول ما ينزل فيه المسجد، فكانت العودة لله... وهكذا ينبغي أن تكون الحياة كلها في منهجيتها، فكلها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فأي سعادة وفرح كان بحلول النبي ﷺ المدينة، وأي سعادة حلَّت في المدينة حين حلَّ فيها رسول الله ﷺ، وكيف خرجوا منها حين وصل رسول الله ﷺ ابتهاجًا بمقدمه ﷺ، حتى قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ، حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا»[2]، وفي رواية عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه وَذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**شَهِدْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ، كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ**

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦).
(٢) رواه الترمذي (٣٦١٨)، وأحمد (١٣٨٣٠)، وابن ماجه (١٦٣١)، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.



مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَوْتِهِ، فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا كَانَ أَقْبَحَ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

واليوم هو الحال ينطق نفسه وابتسامة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتحدث بالرضا والبشارة، وأن السعادة لكم ما دام المسجد أولًا والمسجد آخرًا.. ما دام ضابط حالكم ومحور حياتكم المسجد، اخرجوا أينما تخرجون، وأين تبلغون، وعودوا متى تعودون، ولكن ليكن خروجكم لله، وعودتكم لله، وما بين ذلك لله، كما في الحديث عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ»**(٢).

وهكذا البشارة لحياتكم ما دامت كذلك؛ فلقد خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهمومًا مغمومًا إلى غار حراء.. باحثًا.. متفكرًا.. متدبرًا، فكان خروجه ذلك لله وحده لا شريك له.. فمنَّ الله عليه وعرَّفه فعرفه.. وكانت هذه الابتسامة هي ختم هذه الرحلة الكبيرة الطويلة؛ إنها الابتسامة والرضا والسعادة لأعظم حياة وأسعد حياة؛ فهل من حياة أعظم نجاحًا وفلاحًا في جميع ميادين الحياة مثل هذه الحياة؟! ومع أنها الحقيقة، إلا أنها المثل الأعلى الوحيد القابل للتطبيق على أصغر صور الحياة وأكبر وأعظم صورها؛ من الفرد إلى الأسرة إلى خير أمة أُخرجت للناس.. فالوداع لما أسس الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالابتسامة؛ والاستقبال لما هو قادم بالابتسامة والفأل الحسن.



---

(١) أخرجه الدارمي في مسنده (٨٩)، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٢) رواه الطبراني في الصغير (٩٤٠)، والكبير (٢٨٢)، والأوسط (٦٨٣٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٢٥) رقم (٧٧٠٩): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَرِجَالُ الْكَبِيرِ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

فهل عرفنا الآن: لِمَ الأذان للاجتماع، لم الجماعة، لم صفوف الصلاة، لم الإمام واحد، لم لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد.. إنه بيت الله..وهذه هي البيوت التي قال الله فيها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، أظهر البقاع وأحبها إلى الله؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا**»[(١)]، وهؤلاء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين هم أمام ناظري رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تربوا في هذا المسجد وخرجوا منه، والآن جمعهم الله عَزَّ وَجَلَّ في المسجد للحظة وداع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف لا تقر عينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المحضن وفي الرجال؟!

الهداية الثامنة عشرة: هداية ابتسامته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الثبات على الصلاة إذا ما هدمت أركان الإسلام:

آخر ما تركتكم عليه هو الصلاة، فالصلاة الصلاة.. فلقد أخبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرًا عظيمًا في هدم أركان الإسلام؛ فقال: «**لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا: الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ: الصلاة**»[(٢)]، وهذا إقرار منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وجوب الثبات على الصلاة وإن تكسَّرت عُرى الإسلام الأخرى أو نُقضت.. فالعودة تكون من الصلاة، والخير يبقى في الصلاة، لأن قرة العين مذخورة في الصلاة.. ولأن الصلاة هي الصلة المباشرة بالله.. فلنبق المباشرة إلى الأبد، ولتبق الأخيرة كما في هذه الإشارة الأخيرة.

وسبحان الله؛ فإن إشارة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءت وقد قامت الصلاة وشرعوا فيها فعليًّا، فكان الاختبار عظيمًا، حيث هموا أن يقطعوا صلاة الفجر، وهي فريضة النهار الأولى، وهي قرآن الفجر المشهود فرحًا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءهم التثبيت بالابتسامة - فما أنتم عليه خير - وجاءتهم العودة إلى صلاتهم بالإشارة:

(١) رواه مسلم (٦٧١).
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٧١٥)، والطبراني في الكبير (٧٤٨٦).

«أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ»[1]، فما هو الحدث الأعظم من عودة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحياة.. إلى المسجد إلى الإمامة.. إلى الفتوحات.. حتى تقطعوا لأجله الصلاة، إذا كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو نفسه مَن يبتسم في وجوهكم، يُقِرُّكم على صلاتكم، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهاكم عن قطعها.

وسبحان الله؛ فإن هذا الحديث هداية لهذه الأمة أعظم هداية وأقطعها، هو أن كل مَن يقول لكم: لا تقيموا دينكم حتى يعود فلان، أو يبعث فلان، أو يخرج فلان من مخبأه، أو ما إلى ذلك.. فلا تصدقوه، فليس عودة فلان ولا علان شيء بالنسبة إلى عودة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو مَن أشار لأصحابه وآل بيته - وهم صفوف في الصلاة - أن ابقوا على صلاتكم، ولا تأخذكم الفرحة والعاطفة بعودتي عن إقامة الصلاة، ولا بديل عن الصلاة، ولا صلاة إلا هذه الصلاة التي اجتمع عليها هؤلاء، ورواها لكم هؤلاء، ولن يعود ميت أبدًا إليكم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١،٣٠].. حتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عاد من مرضه، ولم يتحدث، ولم يقرأ قرآنًا، إنما هي الإشارة والابتسامة، ورحل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولك أن تتصور شيئًا لا يمكن حدوثه على الإطلاق؛ وهو أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وحاشاهم لم يأخذوا بإشارة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقطعوا صلاتهم وأقبلوا عليه، أو أقبل بعضهم عليه..! ألا يُغضِب ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. كيف تتركون رب العالمين وتقبلون عليَّ.. ألا تتحول ابتسامته لهم إلى غضب عليهم.. وهذا والله ما لم يكن.. لكنه هو كان على أقوام عملوا بهذا، فهل يزايد أحد على حب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعًا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

الهداية التاسعة عشرة: صلاة الفجر والابتسامة:

هذه صلاة الفجر.. وها هي الصلاة تُقام.. وأبو بكر يدخل في الصلاة، ويدخل

(١) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

المسلمون بعده في الصلاة.. فيطلع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم ليجتمع الفجر والفجر.. الفجر، ومَن فجَّر نور الفجر في مكة، وفي المدينة، وفي الدنيا سواه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فقد طلع عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولًا، ونظر إليهم، وهو خير من الفجر الذي طلع عليهم، ثم كانت ابتسامة الفجر من كل جهاته إعلامًا بالرضا عنهم... وما ذكرناه في هذا الجانب كثير، والحمد لله رب العالمين.

الفجر هو الأنقى هواء، وفكرًا، وسلامة، كما أن صلاة الفجر هي الأنقى من المنافقين، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا. وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**»(١)، ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢)، فكم من منافق في المدينة حُرِمَ تلك الابتسامة.. لأنه حُرم صلاة الفجر ذاك اليوم.. ولو علم بذلك لما بات إلا في مسجده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...

ولا تخلو صلاة الفجر يومَئذٍ من عاصٍ، ومقصِّرٍ، وربما منافق، وحتى هؤلاء، فلأن تتركهم على الابتسامة خيرٌ من أن ترحل عنهم وأنت مظهر لهم الغضب عليهم، والحنق..

فالابتسامة حبل أملٍ يتغذُّون به، وربما يعودون من خلاله، فإن الموقف الأخير هو الذي يبقى، ويقول هذا وذاك، كما يقول الولد العاق ووالده يوصي له وبه بخير: يا ليتني أقررت عين والدي في حياته.. فإذا علم أنه لو صلح عَلِمَ به أبوه عاد وأناب، وأوصل البر بمختلف صوره إلى والده.

وسبحان الله؛ فما سمعنا لحركة النفاق بعد رحيل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجود، وما أنبتت شجرة، ولا أثمرت ثمرة.

(١) رواه مسلم (٦٥١).
(٢) رواه أبو داود (٥٦١)، وصححه الألباني.

فهل كان التوقيت للقاء صدفة؟ وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، في هذا الفجر شاء الله أن يكون توقيت الابتسامة؛ لتبقى هذه الابتسامة الشريفة على جبين الفجر ما أشرق الفجر نورًا على نوره إلى ذهاب الدنيا، ولتبقى الابتسامة على الفجر حاديًا يحدو الشباب المؤمنين والرجال والأمة؛ الفجر الفجر في بيوت الله، وتذكروا أنكم يا مَن تنامون اليوم عن الفجر لو كنتم على حالكم هذا يومَئذٍ لربما ما كنتم وفقتم لحضور ذلك اللقاء الفريد، والمشهد العظيم، والختام الباقي.

الهداية العشرون: الهداية إلى العدل في الرحمة:

سبحان الله؛ فإن هذه الابتسامة منهجٌ في العدل، ومنهجٌ أعلى إذ هذا العدل في الرحمة، فالعدل في العقوبة أمرٌ يفعله الكثيرون حتى الجبارون، لكنهم حينما يرحمون فإنهم لا يعدلون، ولا يخلو من بين الجموع مَن أنكر قلبه، أو امتلأ صدره بغيظه، أو ما إلى ذلك، أما هنا فهذا هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتسم هنا لأهل المسجد، على حدٍّ سواء، فإن ابتسامته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمَّت إلى كل الأمة بجميع أجيالها بنورها على حدٍّ سواء، إذ هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المودع للأمة كلها بكل أجيالها على حدٍّ سواء، فنحن في هذا العهد الذي هو آخر هذه الأمة حتى هذه اللحظة نشعر بمشاعر مَن حضر آنذاك وداعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا فهي تبقى مصيبة الجميع على حدٍّ سواء، ولذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجميع المؤمنين إلى آخر الزمان بـ: «**إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُ**»(١)، فأنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو خادمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر إلى أبي بكر وتبسم في وجهه، ولا قال: نظر إلى الصف الأول، أو الصفوف الأولى، ولا إلى آل بيته الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولا نظر إلى علي وإلى الحسن والحسين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ورضي الله عنهم، ولكن نظر للجميع «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»، ولم يبق لأحدٍ مزيد على آخر، أو لمجموعة مزيد على البقية من

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦٧١٨)، وصححه الألباني.



الأمة، وقد كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَقَضَائِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ»(١).

الهداية الحادية والعشرون: هداية الابتسامة إلى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا الْـمُسْلِمُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ، فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ، وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ لِيَصِلَ لَهُ الصَّفَّ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخُرُوجَ، وَهَمَّ الْـمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلَاتِهِمْ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ: أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ. فَأَرْخَى السِّتْرَ، وَتُوُفِّيَ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ»(٢).

لما أن ظهر وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر السراج العظيم والقمر المنير مجتمعين في وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي شخصه.. إذًا هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم أنهم قائمون للصلاة، إذ هو وقت إقامته للصلاة، فهذه سُنَّته، ثم أحسب أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع صوت إقامة بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فظهر عليهم وكأن الأمر بالنسبة إليه شيء آخر، لكن لسان حال أبيه خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ نطق: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].. نظرة إليكم يا أصحابي.. فيها تقرُّ عيني.. نظرة واحدة أودعكم بها وأرحل.. نظرة أخيرة أطمئن بها على غرسي، وأقرأ من خلالها قادم الأيام لكم ولمن لم يروني.. نظرة وسوف تهيج فِّي دعاءً من واقعي الذي أعيشه ومن لحظاتي الأخيرة.. أيعقل أن أصحابي وأحبابي وثمرة حياتي لا أودعهم ولو بنظرة، لا أَحْبوهم نظرة إلى الوجه الذي ذبوا عنه وأنفقوا له، وتفجرت دماؤهم من صدورهم إلى السماء، والرمح قد اخترق ظهر صاحبي وخرج من صدره، وهو يصيح: «فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ»(٣)، فأي جبارٍ متوحش كان

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥٣٧).
(٢) رواه البخاري (٧٥٤).
(٣) رواه البخاري (٢٨٠١).

يجرؤ أن يقترب مني وواحد من أسد الله هؤلاء ثمَّ؟! ما تركوا شيئًا إلا لأجلي لأجل تراب قدمي قدموه، الأموال نثروها، والبلاد هجروها، الذراري ذرُّوها فداءً لي، الموت ركضوا إليه لأجلي... واقتحموه... أي وداع يا رسول الله - صلى الله عليك وسلم - أصعب من هذا الوداع.. ولكنك أنت أنت القدوة، أنت الهادي الذي أسلم شيطانه.. أنت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذلك الذي قلناه لم نخترعه من عواطفنا.. فمَن يذكر المعروف ويعظمه ويعليه ويعلي أصحابه مثلك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم.. لكن الله عَزَّوَجَلَّ هو سبحانه مَن يثبتك في الموقف.. هو مَن قال عنك - وقوله الحق -: إنك فوق الموقف.. إنك أعلى وأجل وأجمل، أنت الوحيد الذي علا حتى على الخُلُق، فقال ربنا سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتمكن من الخُلُق، الآخذ بناصيته، المستحكم به من فوق صهوته، فالوداع لا في السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ابتداءً ووداعًا في لحظة واحدة.. تشرق عليكم منها ابتسامة لا دمعة تكسر قوتها وتوهجها، ولا مسحة حزن تظلم بقعة في سمائها.. الله.. الله.. كيف ظهر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبتسم، بل كيف «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**».. إنها والله الحقيقة، لكن كيف بلغها أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.. فسبحان مَن ألهمه، وسهل بها كلامه، وأفصح بها لسانه، هذه اللحظة كانت تمثل أحسن تمثيل خلق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته كلها وفي مواقفها أيًّا كان نوعها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] في جميع أنواع محاسن الأخلاق وتفاصيل المواقف.. فهذه الابتسامة العظمى ليست نشازًا في حياته عياذًا بالله.. بل كانت حياة سائرة نحو الذرى، وكلها ذُرى، فكانت الابتسامة العظمى هنا هي مقامها الأسمى في حياة كلها الأسمى، فاللهم لك الحمد.

الهداية الثانية والعشرون: الإشارة إلى أن الآجال لا يعلمها إلا الله:

[لقد تبسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك]، ولما رجع الصِّدِّيق القهقرى، وكاد المسلمون أن يفتنوا، أشار لهم أن ابقوا على حالكم.. إلى متى يا رسول الله نبقى على حالنا.. متى ستعود إلينا.. هل ستعود، أم أنها الإشارة الأخيرة..؟! هل سنلتقي على هذه الأرض ثانية، أم أن لا لقاء إلى يوم القيامة؟ لم يشر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأي إشارة

أخرى، لم يحدد رقمًا، لا يومًا، ولا شهرًا، ولا شيء.. وإنما تركها النبي ﷺ من غير تحديد.. ليبين لهم أبلغ بيان أنه لا يعلم الغيب إلا الله عَزَّوَجَلَّ.. كيف وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له فيما أنزله عليه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، كيف وهو الذي علَّمنا عند زيارة المقابر أن نقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ**»(١)، يقينًا نحن نعلم بأننا بكم لاحقون.. لكن التأدب مع الله لازم، فلا بد من قول: [إن شاء الله]، والله يفعل ما يشاء سبحانه.. فكيف يمكن تحديد موعد للرجوع إليكم، أو في الرحيل عنكم؟!

فكلا الأمرين مفتوح.. وعلمي وعلمكم بأيهما أرجح سواء.. فلتترك الإشارة كما هي إلا الابتسامة التي تقدمت رفعت الجوانب السلبية عن المستقبل، وأزالت الظنون السيئة، وذلك أن الخير ينتظركم سواءٌ عدت إليكم، أم رحلت عنكم.

الهداية الثالثة والعشرون: هداية ابتسامة رسول الله ﷺ إلى الخلافة:

سبحان الله؛ فهذا البحث في الحقيقة إنما هو من بحر ابتسامة رسول الله ﷺ، ونحن نغترف فيه بمنقار طير صغير... فالابتسامة ما كانت إلا لأن العين وقعت على حالةٍ يحبها الله تعالى ورسوله ﷺ ويرضاها، ومنها إمامة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للصلاة بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.. وهذا هو المطلوب، وهذا هو ما أمر به رسول الله ﷺ، وهذا الذي يسعدني وأموت قرير العين ما دمت قد تركتكم وأنتم عليه، ولو لم يكن راضيًا لما ابتسم ولا سكت؛ كما أنه لم يسكت حين قدموا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليصلي بالناس؛ ففي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، جَاءَ بِلَالٌ يُوذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى مَا يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ**»، فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا

(١) رواه مسلم (٢٤٩).

بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، قَالَ: «**إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ**»، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ، وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، وَرِجْلَاهُ يَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي قَائِمًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي قَاعِدًا، يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالنَّاسُ مُقْتَدُونَ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»[(١)].

إنه نظام الخلافة وقد تحدد بالابتسامة المباركة، وإنه أول خليفة وقد تحدد بالابتسامة المباركة، وهو أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلم يحدده رسول الله ﷺ في هذا الحديث.. فالأمر للصديق، وإن شاء تركه لكم، وإن شاء جعل لكم خيارات تختارون منها، لكن تذكَّروا هذه الإشارة العظيمة التي نص عليها أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولم ينص على معناها ومرادها.. فرضي الله عن أنس ألا إنها قوله: «كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ، فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»[(٢)].

كشف الستر.. وهذا ما يناسبه الموقف، إذ هو سيكشف - بإذن الله - لكم غيوبًا في قادم الأيام، وسيكشف لكم الواجب عليكم الآن.. ومما سيكشفه نظامكم الذي تتبعونه في قادم الأيام والأعوام إلى قيام الساعة، إلا أن قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن حالة رسول الله ﷺ لها إشاراتها ومقاصدها العظيمة ذلك قوله: «فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ»[(٣)]، نعم هو قائم لتطمئنوا عليه، وهو قائم لتتفاءلوا بقيامه، فلو لم يكن قادرًا ما قام، وخصوصًا أنكم لا ترون أحدًا يمسك به ﷺ كما هو الظاهر لكم من خلف الستار، إلا أن معنىً عظيمًا أراه لازمًا لكل المعاني التي قيلت وعلى الأخص المعنى الأخير وهو الخلافة.. فإن خلافة

(١) رواه البخاري (٧١٣)، ومسلم (٤١٨).
(٢) رواه البخاري (٧٥٤).
(٣) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).





الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرها إلى يوم القيامة لا يكون لها اعتبار ما لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها قائمًا، ويكون الخليفة على منهاج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمًا.. ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبينكم ستار الموت، أو ستار البرزخ.. فهذا الستار أشبه بالبرزخ الذي بينكم وبينه، وهو الذي أزاحه بيده لينظر إليكم.

فإذا خالف الخليفة فلا طاعة له عليكم.. فما من أحد له على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيام وقوامة إلا بإقامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ما ذكره عمر، وذكره الصِّدِّيق قبله: «**أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَه، فَإِذَا عَصيتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ**»(1).

الهداية الرابعة والعشرون: هدايات الابتسامة إلى الستر:

سبحان الله؛ فما ضرورة أن يذكر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السترة في الحديث.. ماذا تعني السترة في موضوع حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، هكذا هي محدداتنا العقلية وأطرها الفولاذية..

إن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يروون الحقيقة كما هي في الواقع من غير زيادة ولا نقصان، ولكنهم مؤمنون بأن كل ما فيها من عند الله.. وإن إبلاغها للناس هو الأمانة، كما أنه هو الهدى والنور، وهو الحكم، وفيه الحكمة والرحمة معًا.. وهم مؤمنون بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(2)، «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي، فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ، غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(3)، فيبلغ كما سمع وكما رأى، وكل واحد لا يفقه الحكمة يتهم نفسه بقلة فقهه، وما إلى ذلك، ثم هو الاستسلام، ولسان حاله يقول: لعل أناسًا سيأتون من بعدنا يحتاجون هذا الأمر أكثر من حاجتنا، ولعلهم هم المقصودون أكثر منا.. والأمر يعنيهم أكثر

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢١٧٧٨)، وابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٨٩-٩٠)، وقال: وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

(2) رواه البخاري (٣٤٦١).

(3) رواه ابن ماجه (٣٠٥٦)، وصححه الألباني.

مما يعنينا.. ألسنا نحن أول الأمة والطريق طويل ويتسع شيئًا فشيئًا حتى المنتهى، ولعلهم ولعلهم.

فهذه السترة، وماذا في السترة.. فمع أنه بيت رسول الله ﷺ وفيه أمهات المؤمنين، وكل واحد من المؤمنين يقول: [يا أمي] حين يخاطب أي زوجةٍ من زوجات رسول الله ﷺ، ومع هذا فلا بد من السترة، ولا بد من أن تكون مرخاة، ولا بد أن لا تشف عن ما وراءها فهي سترة، والأصل فيها أنها مرخاة لا تُرفع إلا لحاجة مثل الباب، ولهذه الحاجة كشف النبي ﷺ، ولما انتهت الحاجة أسدله ﷺ، ولقد أوشك رسول الله ﷺ أن يعاقب رجلًا بهذا؛ فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ مِنْ جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِدْرًى[1] يُرَجِّلُ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ طَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جَعَلَ اللهُ الْإِذْنَ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ**»[2].

وكم نحتاج أن نتحدث عن السترة بعد هذا التحديد من رسول الله ﷺ، ويكفي أن نعرف المبادئ التي ترتبط بالسترة؛ فمنها مبدأ الغيرة، مبدأ الشرف، مبدأ المروءة، مبدأ القوامة، مبدأ الرجولة، مبدأ الأمانة، مبدأ التقوى، مبدأ البر، مبدأ تعظيم الحرمات، مبدأ العشرة، مبدأ الحياء، مبدأ العفة، مبدأ سد الذرائع، مبدأ النبل، مبدأ الورع، مبدأ النظام.

ولولا أن هذه الأسرة النبوية في المنتهى من السعادة، مع أنها في الذروة من تواصل الابتلاءات، ما استطاع ولي أمر الأسرة أن يخرج في هذه الظروف وتطاوعه نفسه من الابتسامة.

والآن في هذه الأيام نجد الناس يتطلبون السعادة خارج البيوت، فقد صدعوا

(١) مدرى: هِيَ حَدِيدَةٌ يُسَوَّى بِهَا شَعْرُ الرَّأْسِ، وَقِيلَ: هُوَ شِبْهُ الْمِشْطِ.
(٢) رواه مسلم (٢١٥٦).





حين تركوا البيوت وخرجوا خارجها في الأسواق وما إلى ذلك، فأصبح البيت مجرد مكان استراحة للضرورة.

ثم رفعت هذه السترة عن البيوت، فأصبح الرجل والمرأة والولد والكل يهتك سترة بيته من خلال أجهزة التصوير المباشر التي ما عادت تترك للبيت سرًّا، ولهذا لم تكن الابتسامة هي النتيجة، لأنهم طلبوها بغير شرطها، وشرطها السترة، والسترة لا بد لها من قوامة الرجل.. فجاءت النتيجة كثرة الشقاق والخصومة، بل كثرة الطلاق.. بينما المشكلات لم تستطع أن تخفي الابتسامة عن وجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أكثر الناس تبسمًا.

حتى حين كشف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستر الحجرة لم يظهر أحدٌ ممن في البيت أبدًا.. وما حاجة الخارج بمَن في البيت، وما حق الخارج في أهل البيت.. حتى تصبح المطالب العالمية بكشف ما في البيوت؛ كنظام بناء البيوت في بعض البلاد، فإنها تمنع بناء سورٍ عالٍ للبيت، بل يتعاضد العالم لإخراج البنت من البيت، ولها الحماية إن فعلت أي شيء، ولهما الحماية من أهل البيت، ولها الحماية من أبيها وأمها، وهكذا تم إخراج الأم، ولا قوامة في هذا للزوج، ولا للأب، فانتهت السعادة وودعت وراء السترة، ولن تعود إلا بعودة السترة.

قال الله سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الهداية الخامسة والعشرون: هداية الابتسامة الستره دون حدود الله:

ما بين الحلال والحرام ستار رقيق اسمه حد الله وحدود الله، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وما بين الدنيا والآخرة مرحلة هي في الدنيا وهي من الآخرة؛ تلك هي البرزخ، وها هو رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكشف الستر ليعود في حدود بيته وليبقى هو داخل الستار، لا يتجاوزه إلى الدخول إلى أحب مكان لقلبه؛ وهو بيت الله... فهذا هو الحد يا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأبد.. وما هذه الإطلالة بهذا الحدِّ إلا ليعلم العالمون أن لا عودة بعد اليوم مطلقًا.. ولهذا كان فرح الصحابة بتبسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق الخيال، حتى قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو يصف هذه الحالة: «حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ، وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ**»(١)، لا تجاوز للستر، ولا كلام بعد الآن؛ فاليوم الحديث الجامع لكل شيء - نعم لكل شيء - هو حديث الابتسامة.

ولا علاقة أبلغ على الانقطاع عنكم من انقطاع الكلام، ولا إشارة أبلغ عن الرحيل عنكم أبلغ من «فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ»، وإلا فهل في الدنيا كلها أمر يحول بين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين الصلاة وهو على بعد خطوة واحدة ويدخل المسجد إلا الرحيل؟

قوله: «فَكَشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا»: فالأصل في هذه الستره أنها ساترة، وأنه لا يرفعها إلا واحد من أهل البيت نفسه، سواءٌ كان داخلًا أو خارجًا، وأنه لا حجة لأحدٍ بالدعوى بأن هذا بيت الأقرباء والأصحاب!

(١) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).



أليس هذا هو البيت القدوة.. ثم مَن في هذا البيت إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمهات المؤمنين ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، فالستار وإن كان قماشًا فهو كافٍ، لأن الحياء هو خُلُق هذه الأمة، ولأن الحياء أصل في الحياة.. ولهذا عظم الستر وإن كان ستارة، ولربما كانت أبواب حديدية وجدر أسمنتية، لكنها مهتوكة الحرمة، ومع هذا فالأصل في البيوت أن تكون مغلقة والأصل في الجدر أن تكون مرتفعة.

الستر هنا على البيت فكيف بالستر على أم البيت وبنت البيت؟! الستر في صلاة الفجر، وقد كان طوال الليل كذلك، فكيف بالستر طوال النهار وأوقات الازدحام والجُمع.

«**فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ**»: المعنى هنا واضح فلا كلام، ولا الصلاة مع الأصحاب في المسجد والصلاة قائمة، والاكتفاء بالإشارة إذًا فهي ابتسامة الوداع، وإشارة الوداع، وإرخاء الستر، فلا رافع له بعد اليوم... فمَن كان يرفعه كل يوم ودَّعنا الوداع الأخير... وكم كانت الفرحة برفع السترة لا يوصف، فإن إرخاء السترة وما بعثه من قلق لا يوصف.

«**وَأَرْخَى السِّتْرَ**»: الحمد لله أنه ما كان بابًا وأُغلق، ولكنه ستار وأُرخي، وذهب صاحب الباب إلى ستر هو أكبر وأعظم؛ إنه الساتر للدار الآخرة.. ولو أنه كان بابًا وأغلقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَن يا ترى يستطيع أن يفتح ما أغلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وعليه فلن يكون حاكم ولا خليفة يخلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبناء هذا البيت، ولكنه سيكون يومًا من الأيام كما أخبر صاحب البيت؛ وهو ابن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [ابني]، [ولده]، «**لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ**



مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي»(١)، «الْـمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي، مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ»(٢)... وفي الحديث ما يشير إلى أنه الوحيد من عترته الذي سيحكم، وأنه الذي يخرج قبل قيام الساعة؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ بِأُمَّتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ مِنْ سُلْطَانِهِمْ لَمْ يُسْمَعْ بَلَاءٌ أَشَدُّ مِنْهُ، حَتَّى تَضِيقَ عَنْهُمُ الْأَرْضُ الرَّحْبَةُ، وَحَتَّى يُمْلَأَ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا، لَا يَجِدُ الْـمُؤْمِنُ مَلْجَأً يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ، فَيَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلًا مِنْ عِتْرَتِي، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الْأَرْضِ، لَا تَدَّخِرُ الْأَرْضُ مِنْ بَذْرِهَا شَيْئًا إِلَّا أَخْرَجَتْهُ، وَلَا السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا إِلَّا صَبَّهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، يَعِيشُ فِيهَا سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ أَوْ تِسْعَ، تَتَمَنَّى الْأَحْيَاءُ الْأَمْوَاتَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ خَيْرِهِ»(٣)، والحمد لله أنه جعله ستارًا ولم يجعله بابًا مغلقًا بيد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما نقول: الحمد لله أن الله سبحانه ما استجاب دعوة ذلك الداعي ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١]، ولو استجاب الله هذا الدعاء ففار الماء لما صلح شأن هذه الأمة أبدًا.. لكن الله أحاط بثمره، وأبقى شجرة، ليأتي اليوم الذي يأمر الله السماء أن تنزل قطرها، ويأمر الأرض أن تخرج خيراتها، فتعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا.

... وهكذا، وهكذا، وهكذا... من هؤلاء الذين اصطفوا للصلاة.. أليسوا هم غراس القرآن، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

أي شيء قُرِئَ في مسجده المبارك هذا أكثر من كلام الله.. أي شيء تحلقت الحلقات لأجله أكثر من تعليم آيات الله، أي شيء حضَّ عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر

(١) رواه الترمذي (٢٢٣٠)، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) رواه أبو داود (٤٢٨٤)، وصححه الألباني.
(٣) رواه الحاكم في مستدركه (٨٤٣٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.



من تعلم كتاب في بيت الله، أي شيء أقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي الله قانتًا أكثر من القرآن العظيم؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْشُدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(١).

فأين احتشدوا إلا في هذا المسجد المبارك الذي حضرت ذكرى القرآن العظيم بين عينيه الآن؟!

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ، فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السِّتْرَ، وَقَالَ: «**أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ**»، أَوْ قَالَ: «**فِي الصَّلَاةِ**»(٢).

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: ذُكِرَ عَبْدُ اللهِ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لَا أَزَالُ أُحِبُّهُ، بَعْدَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَبَدَأَ بِهِ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ**». قَالَ: لَا أَدْرِي بَدَأَ بِأُبَيٍّ أَوْ بِمُعَاذٍ(٣).

الهداية السادسة والعشرون: الابتسامة العظمى من رواية صحابي واحد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين:

هل تجدون راويًا غير أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث قد أطبق ذِكره في الآفاق؟

(١) رواه البخاري - الفتح ٨ (٥٠١٣)، ومسلم (٨١٢) واللفظ له.
(٢) رواه أبو داود (١٣٣٢)، وقال محقق جامع الأصول (٢/ ٤٦٠): إسناده صحيح. وقال الألباني (١/ ٢٤٧): صحيح.
(٣) رواه البخاري - الفتح ٧ (٣٧٥٨) واللفظ له، ومسلم (٢٤٦٤).

ألا يكفي أن يرويه أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وحده أن نأخذ بها، وننشرها، ونطير بها أُنْسًا وفرحًا، ويأتي البعض يتساءل فيقول: أين خطب الجمعة التي خطبها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ..؟ وهل من حضور للأصحاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أكثر من خطب الجمعة؟

وهكذا يسير الطعن في هدي المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والذي يجب أن نعلمه أن مَن حضر في مسجد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذه الأيام العشرة لم يحضروا في أيام مثلها أبدًا.. فَلِمَ لَمْ يروِ هذا الحديث غير أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فضلًا عن الجمعة وغيرها؟

أولًا: أن ما من صحابي إلا وهو مكلف أن يروي عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جميع ما حفظ... وأدى جميع الصحابة أمر الله.. لكن عادة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أنهم لا يروون إلا متيقنين تمام الإيقان، وإذا ما شك أظهر الشك وأظهر موضعه، ونص على ذلك نصًّا، وكان كثير من التابعين بعدما يسمع رواية من صحابي، ويسمع رواية أخرى من صحابي آخر، كان يعرضها على الأول، فإذا قال له: صدق فلان هو أثبت مني في هذا.. ترك التابعي هذه الرواية وتُترك إلى الأبد، وأحيانًا تثبت القصة بأكملها، وما كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يكتبون عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا في فترة متأخرة.. وما كان يكتب إلا القلة، وكانوا إذا عرفوا أن فلانًا من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين، وهو مَن يحسن يحفظ الحفظ، ويحسن الرواية، ويؤدي كما سمع، وحضر المجلس ذاك، يتركون الرواية لعلمهم بأنه أدى الفرض أحسن من أَدَائِهِمْ، وأنه كفاهم حمل هذه الأمانة، مع عظيم مخافتهم من أدائها بدون الضبط الذي يضبط الآخرين، ولهذا فقد أعلن بعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ذلك؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ: «إِنِّي لَا أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَمَا يُحَدِّثُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟! قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**»[(١)]، وحديث آخر هو اشتراط اشترطه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»**[(٢)]،



(١) رواه البخاري (١٠٧).
(٢) رواه البزار في مسنده (٣٤١٦).

وفي رواية: «**فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ**»[1]، فهذا اشتراط ليس بالسهل، ولا يخفى ما كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليه من الورع.. فمَن ظنَّ أن مجرد الحضور كفيل بأن يروي جميع الحضور ما سمعوا فهذا وهم... وإذا حضر الأحفظ والأبلغ في التبليغ فقد كفاهم الأمانة والمؤنة، ولا شك أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعرف ببعضهم من جميع المحدثين والمحققين.

وفوق كل هذا إن الذي يأتي ويقول المشكك أو المردد بحسن نية ما لا يعلم: أين هي خطب الجمعة؟ وكأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عندهم أناسٌ كتبة متفرغون للكتابة، علماء بالفهرسة والتبويب، وما إلى ذلك من علوم المكتبة التي ما عرفها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وما جلسوا لها، ولا تفرغوا لتخريجها! إنما كانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجمعون كل ذلك بكلمات واضحات، وعبارات مختصرات جامعات، وثمة كلمة ترد عادة في رواية خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العامة، ومنها خطب الجمعة، وتقول: [خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]، فيذكر الراوي جزءًا من خطبته مما حفظ منها؛ كما قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن خطبة طويلة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ**»[2].

وأمر هو أعظم الأمور: وهو أن السنة مثل كتاب الله في أمرين؛ في حفظهما، وفي وجوب طاعتهما، لأن كليهما وحي.. وليس مثل كتاب الله في الأمور الأخرى مثل الأجر والتحدي والإعجاز... والشاهد هو أن هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محفوظ.. وأن الله سبحانه ما أمر بطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا لأنه تكفَّل بحفظ هديه، إذ كيف يطيعونه لو كان الله عَزَّ وَجَلَّ لم يتكفل بحفظ هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما كانت الآية: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١]، ولأصبحت بناءً على هذا القياس الفاسد: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾، ولا تطيعوا أحدًا سواه، لأن المحفوظ هو كتاب الله وحده، ولم أحفظ لكم سواه وفق مقتضى قول هؤلاء المبطلين! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) رواه مسلم (٢٨٩١).

وكفالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للسنة شيء عظيم.. فليست هي مقتصرة على نص كلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحسب، بل السُّنَّة أوسع من الكلام وحده، ولذا كان الضمان من رب العالمين على كل شيء.. نعم كل شيء لحفظ السنة وبقاء الهدي النبوي.. وما ذهب من السنة شيء فهو من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حتى ما أحرقه التتار أو أغرقوه فالله سبحانه يقول: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وهذا أمر وإن كان وقوعه بذنوب بني آدم، لكن لا شك له فوائد عظيمة؛ منها فوائد في حفظ دين الله تعالى.. فلك أن تتصور أن جموعَ الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الموجودين في مسجده في صلاة فجر ذلك اليوم كلهم رووا هذه القصة.. فكم سوف يستهلك من الأمة بعد ذلك دراستها وحدها، إذا كان مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسع أكثر من ألف شخص!

ولك أن تتصور ذلك في رواية كل خطبة جمعة..! إنه وبالإضافة إلى تحول الأمة إلى الجانب النظري، وهذا على حساب الجانب العملي، وليس هذا هو مقصود رسالة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل مقصودها العمل، والإصلاح، والهداية، وإعمار الأرض.. فإنه وفوق هذا سوف يكون سببًا كبيرًا وبابًا واسعًا لدخول أوهام الاضطراب في أغلب الأحاديث، وذلك سببه للشك وإسقاط أغلب السُّنَّة بداعي وهم الاضطراب.. وهذه هي المصيبة المضادة لحفظ الله السُّنَّة وكفالته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك.. وإذا روى ذلك العدد الهائل من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لرواية كل حديث فرضًا، فكم سيكون عدد الروايات في التابعين ومَن بعدهم؟! فرعاية الله لسُنَّة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يمكن أحد تصورها، ولا أن يدرك مجراها ومسراها ومرساها.. ووالله إنها لأولى وأعظم من سفينة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي قال الله عنها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

الهداية السابعة والعشرون: الهداية في رواية الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الآخرين أو عدمها للأحاديث:

لا شك أنه ما من صحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سمع من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلامًا أو رأى منه فعلًا، أو رآه على حالٍ.. وأنه عرف ذلك الذي حضره وحفظه وضبطه

ضبطًا كاملًا، إلا رواه كما رآه، لا شك في ذلك، ولا ريب.. ولكنهم في المقابل ما كانوا يكتبون عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوال بقائهم في مكة، ولا في المدينة إلا فترة من الزمان قصيرة، وذلك من بعد السنة السابعة فيما يظهر لي والله أعلم.. فما كانوا يكتبون قبلها حتى أذن لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تمكنوا من القرآن العظيم تمام التمكن..

وفوق هذا فإن مَن لم يكتب عند أول ما سمع، أو رأى، أو عايش، يبقى لا يضبطه كما ينبغي، فكيف والأحداث التي واجهوها مقلقة ومخيفة ومنسية.. **وبعد ذلك وفوق ذلك أَذِنَ** الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشترط شرطًا عظيمًا، وهو قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**»(١)، فهو ليس شعرًا عند العربي لو سقط منه قولٌ رقَّعه بآخر ربما يكون أحسن منه.. ثم إن «**فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**»، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هنا: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٢)، وفي حديث آخر: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٣)، في حديث آخر: «**لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ**»(٤)، فاختار الكثير من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جانب عدم الرواية، لأنهم أعظم الناس ورعًا، وأشد الناس خوفًا من خيانة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخيانة أمانته وهم يعلمون أن ثلة حافظة مؤمنة جلُّهم من شباب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هم أقوى منهم حفظًا وضبطًا، وكتابة يجمعون السُّنَّة جمعًا.. ولهذا قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن المكثرين في رواية الحديث:

وَالْـمُكْثِرُونَ فِـي رِوَايَـةِ الأَثَرْ — أَبُـو هُرَيْـرَةَ يَلِيـهِ ابْـنُ عُمَـرْ
وَأَنَـسٌ وَالْبَحْـرُ كَالْخُـدْرِيِّ — وَجَـابِرٌ وَزَوْجَـةُ النَّبِـيِّ(٥)

وبهذا يكون رواة الحديث من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قد قاموا بالواجب عن إخوانهم..

(١) رواه البزار في مسنده (٣٤١٦).
(٢) رواه البخاري (١٠٧).
(٣) رواه البخاري (١٢٩١).
(٤) رواه البخاري (١٠٦).
(٥) ألفية السيوطي نظم الدرر في علم الأثر، البيتان (٦٦٢،٦٦١).

اللهم إلا مَن كان عنده شيء ليس عند غيره فإنه يرويه ولو قبل موته بقليل.. ولهذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشد على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الرواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومع كل هذا فإن ما رواه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ووصل إلى هذا الوقت فإنها هو ما أراد الله حفظه، وأما ما لم يرد حفظه فقد ذهب.. كما أن ما أراد سبحانه حفظه في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفظه بعض الصحابة ورووه، وسخر له سبحانه مَن حَفِظَه عنهم ورواه.. والحقيقة هي أنهم رووا كل شيء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل مناحي الحياة، وفي كل شيء؛ في الأسرة، وفي أخص الخصائص، وفي أكبر جوانب إدارة الحياة، بل إدارة الأمم.

إلا أننا نعود إلى الأجيال التي جاءت من بعد ما كُتبت الكتب، ووُثقت، ودخل مَن دخل في الإسلام، وحدثت أحداث كثيرة في تاريخ الإسلام، ومن أشد تلك الأحداث دمارًا كان دخول المغول عاصمة الخلافة الإسلامية، وقتلهم العلماء، وإحراقهم المكتبات، فاجتمعت هاتان الداهيتان في وقت واحد.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. وحسب الناس أن كل هذا شرٌّ محض، بينما كان فيه كذلك خير؛ ومن ذلك الخير هو أن المغول بعد ذلك انكسروا، وكُفِي العالم شرهم، ثم أسلموا وحملوا الإسلام إلى أقوامهم، وحكموا بالإسلام أممًا، وإلى عهد قريب كان حاكم بلاد الهند الكبرى مغوليًّا مسلمًا، ثم ما قتلوا من العلماء ومن العامة فلهم الشهادة في سبيل الله، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم وعلى فرض أنهم أحرقوا كتابًا واحدًا ليس له نسخة أخرى إلا كان ذلك بأمر الله، وكان من باب: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وهذا ما كان، فإن كان شيء منه من كتب السنة فإنما أراد الله عَزَّوَجَلَّ نسخه.. وهذا من حفظه وحفظ هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله عليم بأن هذا العالم سيتغير، وأن بعض العلم لا يحتاجونه، وبعضهم لا يحتملونه - كما نشاهد هذا من القوى الغالبة في هذا العصر - فأراد الله سبحانه أن يحفظ المسلمين ويحفظ لهم دينهم ولا يفتنهم، فكانت تلك كَسُنَّة الله في إسقاط أوراق



الأشجار في الخريف، لينبت بعدها الثمار والخيرات، ومع هذا فإننا لا نرى أبدًا في هذا الدين نقصًا ولا ذرة واحدة، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وذهاب شيء لا يحتاجه الناس ليس نقصًا، بل تخفيفًا.

نعم يودُّ الباحث والعالم أن كل شيء حُفظ، لكن يعلم الله أن الخير في غير ذلك، ولو شاء الله أن يصرف التتر المغول لصرفهم، وصرف الحرائق عن المكتبات.

ولو تصورنا هنا أن كل صحابي في مسجد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ روى حديث الابتسامة مثلًا، فَلَكَمْ ستحمَّل الأمة ما لا تطيق من الروايات! فكيف إذا كان هذا في كل باب! فهذا هو حكم الله، وحكمة الله، ولطف الله.. فلا غرابة أن لا تصل إلينا إلا رواية أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومع هذا فإنه ما من جانب في الحياة إلا شمله هدي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ورواية أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وحده عن رواية أمة من الناس وأكثر، كما رأينا فرضي الله عنه... ولهذا فإن تناول السنة يجب أن تتجدد منهجيته.. ليعظم الاستبصار الذي تستحقه السنة في هذا الزمان، وفي هذا كتبت كتابًا منهجيًّا يصلح للقراءة والتدريس، وسميته [فستبصرون]، فاللهم بارك، والحمد لله رب العالمين.

الهداية الثامنة والعشرون: إعلان خسارة الشيطان - نعوذ بالله منه - من إشارات الابتسامة العظمى:

أي لحظة يطمع فيها الشيطان، بل ويقاتل عليها الشيطان أكثر من اللحظة الأخيرة.. فلربما خسر الشيطان كل لحظات الحياة، وهو دائم الخسارة مع المؤمنين... إلا أن الحقير يرضى بما تحقرون من أعمالكم كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنه وإن خسر حياة المؤمن كلها فإنه يبقى يطمع في اللحظة الأخيرة نعوذ بالله منه..

ولهذا فإنه لا أقل عنده من أن يبعث في لحظات الختام الأسى، والأسف، والحسرة، والحزن في قلب المؤمن في لحظات الموت، ليموت ساخطًا.. أو كما قال الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه: «**إن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان الواحد**

عن يمينه، والآخر عن شماله، فالذي عن يمينه على صفة أبيه يقول له: يا بني إني كنت عليك شفيقًا، ولك محبًا، ولكن مت على دين النصارى وهو خير الأديان، والذي على شماله على صفة أمه يقول له: يا بني كان بطني لك وعاء، وثدي لك سقاء، وفخذي لك وطاء، ولكن مت علي دين اليهود، وهو خير الأديان»[1]، نعوذ بالله منه، وهذه لا يسمعها مَن بجوار الميت إلا أنه يأتيه، وهي عادة لا ينجح أبدًا فيها مع المؤمنين، لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، أما هنا فلقد خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فتبسَّم يَضْحَكُ»[2]، وفي هذا إشارة عظيمة إلى إعلان النتيجة القادمة والنهائية في الصراع الحق ما بين رأس الحق كله في الأرض حامل اللواء الأكرم والأعظم يوم القيامة، وبين الشيطان والذي اعترض على السجود لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

فلقد قال الشيطان في طلبه من ربه يوم طرده رب العالمين من الجنة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠-١٧]، فلقد خاطب الله سبحانه الناس كافة ذرية آدم بوجوب شكر الله، وحذرهم من كثرةِ غير الشاكرين.. وجاء الشيطان ليعلن خطته كاملة، ويعلن غايته واضحة كما هي، لأنه يعلم أن الله يعلم ما يعلن وما يخفي.. كما أنه يعلم أنه إن كذب فلن يُعطَى طلبه.. فانكشف كما هو في داخله، وهذا ما ليس بعادته، وقال هذه وأعلن أن غايته إنما هي صرف الناس عن شكر الله.

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (١/ ١٨٥).
(٢) رواه البخاري (٧٥٤).

وما أجمل الابتسامة وأجلها من وجه رسول الله ﷺ وهو المودع، بل هو الميت ﷺ.. ما أعظم ما تبعثه في النفوس إن الحياة هنا تبعث من الموات.. الحياة للهمم، الحياة لمواصلة الحياة.. الحياة التي تقطع اليأس وتوصي بمواصلة المسير.. الحياة بأن لا تسقط الراية، وإن كان صاحب الراية هو أعظم ذرية آدم، فإنه ذهب هنا ليحمل الراية العظمى في تلك، راية الحمد مع لواء الحمد، الحياة التي تبعث الشكر لله رب العالمين، ليزيد الله الشاكرين عددًا وهمَّةً... الحياة التي بها تقربها جميع مخططات إبليس، وتبور مشاريعه، وتفسد حيله.. فماذا يصنع الشيطان بعبد وهو يوشك أن يلقى ملك الموت في يومه هذا، أو في ساعته هذه.. وماذا يصنع برجل قد صنع أمة تحب الموت في سبيل الله مثل محبة عباد الشيطان للحياة.

وأين ذهبت غاية الشيطان – نعوذ بالله منه – ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] في شكرٍ فاض من القلب على الوجه الكريم وجه خاتم المرسلين وقائد العالمين إلى يوم الدين ﷺ.. وفاض ابتسامة نورًا.. ففاضت على الناس شُكرًا.. وعلَّمت الناس شُكرًا، وعلمتهم: أن اعلموا يا أمة محمد شكرًا.. فأصبح في عُرْفِ أمة محمد ﷺ أحب منظر إليهم أن يروا هذه الصورة من الشكر في هذا الموقف وما يقاربه على أي واحد منهم.. ويغبطون مَن مشي للموت مبتهجًا، معلنًا رضاه عند ربه، سائلًا الله الرضى عليه؛ ذاكرًا الله بأعلى صوته شامخًا مبتسمًا.. ويغبط بعضهم بعضًا إذا رأوا شهيدًا أو ميتًا في بيته طَلْق الوجه أو مبتسمًا... قد أراده الشيطان حزنًا وغمًّا وكربًا غلب عليه وعلى وجه.. أراده تضجرًا وتذمرًا وسخطًا.. وصراخًا وصخبًا واعتراضًا.. فهنا كانت الابتسامة التي نقضت على الشيطان غزله.. الابتسامة التي تعلق بها كل مؤمن، وهو يسعى لها ويدعو الله دائمًا وأبدًا بحسن الخاتمة، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاه، وهو لا يزال يردد معلنًا الرضى طالبًا إياه من ربه صباحه ومساءه: «**رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(١).

(١) رواه أبو داود (١٥٢٩)، والحاكم (١٩٠٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وصححه الألباني.

«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»(١).

وأسألك حسن الخاتمة..

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(٢).

لقد كان الوقت الأنسب لإعلان النتيجة في هذه الابتسامة هو هذه اللحظة الأخيرة، وما كان الأنسب قبل ذلك.. إعلان النتيجة الأخيرة على مَن قادَ المسيرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. للجولة الأخيرة قبل قيام الساعة.. وإن لم يعلنها هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمَن يعلنها، وهذه هي النتيجة النهائية للصراع كله.. بعدما أعلن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النتيجة العظيمة التي تحققت في حياته، فقال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(٣)، فالمسيرة واحدة والقائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الابتسامة كانت بشرى ليس مثلها بشرى لنا نحن، والحمد لله رب العالمين.

الهداية التاسعة والعشرون: إشارة الابتسامة إلى ضرورة الاستنباط:

أنا أؤكد وأُذكر عند كل استنباط لناسي الابتسامة، وما احتفت به من قرائن في هذا الظهور للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ظهور مزيد، وظهور أخير، أن كل شيء في هذا الظهور من الله سبحانه، أي أن ذلك [صنع الله] سبحانه وبحكمته، وإلا فلو شاء الله

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني.
(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.
(٣) رواه مسلم (٢٨١٢).



تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يعطي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القدرة على الكلام لأعطاه ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ولذلك كانت هنا الابتسامة أعمق من النطق، وأبلغ في موقعها هذا تحديدًا، وكانت الإشارة أعمق وأبلغ في موقعها هذا، وكانت الستارة في موقعها أعمق من النطق وأبلغ، وكان القيام أعمق من غيره وأبلغ، وكان رفع الستار وكشفه وإسداله خيرًا من الكلام وأبلغ، كل شيء هنا أعمق وأعمق من مثيله وأبلغ.. فلو تكلم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَخَذَ الكلام بُعدًا كالتزام أناس ظاهر الشأن في كل ما روى مما صح من أحاديث بلغت أكثر من عشرين ألف حديث، أما هنا فإذا لم تستنبط لم تتمكن من عبور هذا البحر، وإذا لم تستنبط فما الذي يفجِّر الحكمة، وما الذي يقرِّب الأبعاد الزمانية، ومَن الذي يفهم المطلوب، ومَن، ومَن... لا سبيل لك إلا إعمال العقل بالتدبر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

هنا كشفت ابتسامته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتجمدين، بل المتبلدين..

هنا قطع الله الطريق على أُناس ضيقوا على الأمة استخدام التدبر والاستنباط بحجة الأخذ بالظاهر، وحجتهم الدائمة القائمة المظلمة أن الله لو أراد غير الظاهر لذكره؛ وهذا من أفسد القواعد، فما يدريك أساسًا عن الله، وما أراد وما لم يرد، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا! فالتدبر أصل، واستخدام العقل شكر على نعمة هي من أعظم النعم التي كرَّم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها الإنسان.. وكم ذمَّ الله عدم استخدام العقل!

حتى تأخير هذه الحادثة إلى آخر حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما جاء الآن، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ربَّى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على تلقي النصوص والعمل بها رعاية من هديه جزءًا لا يتجزأ من النصوص، والآن سيتركهم، والحياة ستتجدد، وستتمدد، وستكثر

فيها الاختلافات لكثرة اختلاف العقول الداخلة، ولكثرة مشاربها الآتية الهادرة وشدة اختلافها عن حدود جزيرة العرب، ثم إنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد ترسخ عندهم أنه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وهي مرحلة تثبتت فيها النصوص واستقرت منزلتها العليا عند المسلمين، وقد بيَّن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن غاية حفظ النصوص إنما هي استخراج الفقه منها؛ فيقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١)، «**وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»(٢)، فماذا يعني



(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٢) رواه البزار في مسنده (٣٤١٦).

ليس بفقيه؟ ليس عنده قدرة على الاستنباط، وليس عنده القدرة على ربط الواقع الجديد بالأصول التي استوعبت كل شيء إلى يوم القيامة.

وقد جاء في الحديث: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[1].. ومع هذا فما كانت هذه هي الحادثة الوحيدة التي علَّمهم فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكم وكم علمهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال حادثة الاستفتاح، وتركهم للاختلاف، وكم مرة أقرَّ المختلفين على اجتهاداتهم، وكم أعمل عقولهم في تعبير الرؤيا، وكان دائمًا يسألهم عن تعبير الرؤيا بعد صلاة الفجر إذ الرؤيا حاضرة... والعقول في الصباح صافية نيرة، وكم مرة أمرهم فجاءت هذه الحادثة التي ليس فيها إلا ثلاث حركات، فإن زادت فأربع دون أي كلمة، جاءت هذه في آخر حياته ليعلن أن مرحلة التأسيس قد تمت، والكنوز كلها قد اجتمعت، ولا مزيد عليها بحرف واحد، فلتتدبروا مرحلة الاستنباط الصحيح الذي لا يخرج عن الأصول، وليس من حقه ذلك، ثم إنها جاءت في آخر يوم في الرسالة لتبقى نبراسًا للأمة في اتساعها أممًا، وعادات، وقوميات، وأعرافًا في أصقاع هذه الأرض، ولتكن نبراسًا أخص ما يكون للأمة في آخر أيامها، وإن شئت قلت: في آخر خلافة لها على هذه الأرض.. فالآخر يذكر بالآخر، والخلافة تذكر بالخلافة، فاليوم لا كلام؛ فكيف ستعمل.. من أين ستأتي بالعمل الظاهر؟!

وأنا لا أتصور أبدًا أن في التاريخ كله عملًا محضنًا للاستنتاج مثل هذا المحضن مطلقًا، إذ العبرة ليست بطول وقته، وإن كان مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استمر عشرة أيام، وما أدراك ما تلك العشرة أيام.. وكلما مرَّ يوم، بل ساعة، ازداد العصف الذهني.. إذ الاستنتاج العقلي براكين تتفجر، ولا تكاد تبرد حتى تتفجر.. أيها الناس إن الموضوع متعلق مباشرة بموت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحياته! فأي شيء.. وأي موضوع.. وأي مصيبة أصعب من هذا.. إن الجميع يقرأ أي شيء.. يقرأ الهمس.. يقرأ صدور الداخلين عليه حين يدخلون، ويقرأ أشكالهم حين يخرجون.. الجميع

(١) رواه البزار في مسنده (٣٤١٦).

يقرأ الوجوه.. بل يقرأ التاريخ، ويربط، ويقيس، وينظر في القرائن؛ ومن صور هذا ما ورد من حوار بين العباس عم النبي ﷺ وبين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ: «أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا حَسَنٍ، كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللهِ بَارِئًا، فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ وَاللهِ بَعْدَ ثَلَاثٍ عَبْدُ الْعَصَا، وَإِنِّي وَاللهِ لَأُرَى رَسُولَ اللهِ ﷺ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا، إِنِّي لَأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ، اذْهَبْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلْنَسْأَلْهُ فِيمَنْ هَذَا الْأَمْرُ، إِنْ كَانَ فِينَا عَلِمْنَا ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِنَا عَلِمْنَاهُ، فَأَوْصَى بِنَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنَّا وَاللهِ لَئِنْ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَمَنَعَنَاهَا لَا يُعْطِينَاهَا النَّاسُ بَعْدَهُ، وَإِنِّي وَاللهِ لَا أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ»[١].

هنا تألقت الابتسامة على صاحبها الصلاة والسلام، وتألق أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تدقيق وصفه، وتعميقه، وتحقيقه، حين قال: «**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»[٢]، وتألق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كل كلمة، وكل عبارة، وفي نقل الأجواء والأنوار سواءٌ داخل النفوس، أو المسجد، أو بيت النبي ﷺ.

الهداية الثلاثون: الهداية إلى مقام القرآن:

لو ربطت هذه الابتسامة بكل شيء إلا القرآن لذكرت كل شيء إلا الشيء الأول والأعظم؛ إنه القرآن... فأي شيء تبصر عيناه الآن ﷺ في أرجاء المسجد كلها إن لم تبصر كتاب الله، وحكم تنزل هنا، وهنا، وهنا.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «**أَلَمْ**

(١) رواه البخاري (٤٤٤٧).
(٢) رواه البخاري (٧٥٤).



يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]»، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْـمَسْجِدِ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»، قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، هِيَ السَّبْعُ الْـمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْـمَسْجِدِ. فَقَامَ وَكَبَّرَ وَصَفَّ النَّاسُ وَرَاءَهُ، فَاقْتَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»، ثُمَّ قَامَ فَاقْتَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً - هِيَ أَدْنَى مِنَ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى - ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، هُوَ أَدْنَى مِنَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»، ثُمَّ سَجَدَ - وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو الطَّاهِرِ: ثُمَّ سَجَدَ - ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى اسْتَكْمَلَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ، وَانْجَلَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَافْزَعُوا لِلصَّلَاةِ، وَقَالَ أَيْضًا: «فَصَلُّوا حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ عَنْكُمْ». وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُمْ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أُقَدِّمُ (وَقَالَ الْمُرَادِيُّ: أَتَقَدَّمُ)، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا ابْنَ لُحَيٍّ؛ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ». وَانْتَهَى حَدِيثُ أَبِي الطَّاهِرِ عِنْدَ قَوْلِهِ: فَافْزَعُوا لِلصَّلَاةِ. وَلَمْ يَذْكُرْ مَا بَعْدَهُ»(٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «لَـمَّا أُنْزِلَتِ الْآيَاتُ الْأَوَاخِرُ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَلَاهُنَّ فِي الْـمَسْجِدِ، فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ»(٣).

(١) رواه البخاري - الفتح ٨ (٤٤٧٤)، ٨ (٥٠٠٦).
(٢) رواه البخاري - الفتح ٢ (١٠٤٦)، ومسلم (٩٠١) واللفظ له.
(٣) رواه البخاري - الفتح ٨ (٤٥٤١)، ومسلم (١٥٨٠).

«**فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ**»: هل كان تبسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المسجد المبارك لأجل أنه ترك مصاحف في هذا المسجد! كيف وهو إنما كتب مصحفًا واحدًا وتركه في بيت حفصة أم المؤمنين.. وإنما لأنه ترك بقاء القرآن، وترك تربية الأمة؛ فسرُّ بقاء الأمة إنما هو هؤلاء الرجال الذين يحملون القرآن، وسيعلمونه كما تعلموه مني وكما علمني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأي شيء يقر عينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وسر تربية الأمة هو هذا المسجد المبارك الذي هو محضنها الرئيسي، ومبعثها الأساس، وكم ربط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يطل على الناس اليوم في هذا الموضع تحديدًا عبثًا، وهو قادر على أن يدخلهم عليه في بيته يسلمون عليه على فراشه، لا، ولكن هو مَن يأتيهم، ويأتيهم وقد أقيمت الصلاة، وقد كبَّر الصِّدِّيق للصلاة، وهل محور الصلاة كلها إلا قراءة القرآن بأم الكتاب أولًا، وبالكتاب بعده، وذلك في كل ركعة.. إذًا فهي قراءة آيات الله في لقاء الله في بيت الله في صلاة الفجر، مع ما فيها من ذكر الله ودعاء.. فلا يليق بمَن يلاقي ربه أن لا يطلب منه ويسأله.

فأي ارتباط عظيم هذا الذي عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين آيات الله والمسجد وبين أولياء الله؛ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ**[1] **فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ! قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»[2]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[3]، وأحاديث أخرى في تعلم القرآن في المسجد، ودخول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يقرؤون القرآن في المسجد..



(١) كوماوين: عظيمتين.
(٢) رواه مسلم (٨٠٣).
(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

كيف لا يبتسم وأعظم إشراقة ليالي رمضان كانت في المسجد؛ حين يعتكف ﷺ وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيه يدارسه القرآن.. وهو الذي نزل بالقرآن على قلبه.. أي أنه دارسه القرآن عشر مرات، وذلك لكل ما كان قد نزل، فلما كان في العامين الأخيرين.

«فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: كيف لا يتبسم ﷺ وهو من هذا القرآن كان خلقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفي هذا القرآن حدَّثه الله عن سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي هذا القرآن قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهل من ربط أظهر وأعظم ما بين ابتسامة النبي ﷺ أكبر من ربط أصحاب رسول الله ﷺ في هذا الحديث حيث قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهُوَ قَائِمٌ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ»(١).

«فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»: فمن غار حراء كان الابتداء إذ كان وحيدًا فريدًا بعيدًا غريبًا.. وكانت الإطلالة الدائمة من هناك على الكعبة، وما أدراك آنذاك! وقد حفظ الله تلك الإطلالة بحفظ الشق الأعلى في غار حراء على الكعبة إلى اليوم.. وكانت هناك ابتداء أعظم سعادة قادمة على الوجود كله، لكنها كانت البداية العظيمة، والآن يطل رسول الله ﷺ ينظر إليهم «يَضْحَكُ»، فهل تستحق هذه الإشارة لهذا الأمر وهذا الفارق العظيم ما بين الابتداء وبين الختام.. حقًّا إنها العبارة الجامعة «فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ»، ولا يمكن أن يكون هذا الكشف عن هذا المعنى الجامع للابتداء والانتهاء ولو كانت العبارة [تبسم ضاحكًا] والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

الهداية الحادية والثلاثون: إشارة إلى بشارة:

ما من شك والله أن رب العالمين هو مَن جمع في هذه الابتسامة كل شؤون الدنيا كما رأينا، لكن هنا جاءت البشارة العظيمة من رسول الله ﷺ.. بشارة العهد على الابتسامة من رسول الله ﷺ لكم، إذ هي آخر العهد بكم؛ فلكم مني الابتسامة عند أول لقاء قادم بي يا أصحابي، ألم يقل النبي ﷺ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»[1]، وها هو رسول الله ﷺ يفارقنا على هذا العهد، وحاشاه ﷺ أن يرضى عنا ويبتسم لنا، ثم في موطن شدة حاجتنا يوم القيامة يكون لنا على غير ذلك العهد.

والبشارة العظمى كذلك المتعلقة بوجه النبي ﷺ الطلق المشرق، وهي بشارة لأمته خاصة هو أنه أول وجه ستنشق عنه الأرض يوم القيامة، فهو القائل ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ**»[2]، ووداعًا يا رسول الله وداعًا، وما ودَّعتنا إلا بابتسامة لن تغرب أبدًا.

وداعًا يا رسول الله ﷺ، اهبط بسلام عليك من الله ورحمة وبركة.. اهبط إلى غرفتك المباركة، بل اهبط إلى روضتك في الجنة الخاصة بك.. ومَن عاش في روضته التي لا يعلم عظمتها وحقيقتها إلا الله عَزَّوَجَلَّ فأنَّى له أن يقوم بوجهٍ كئيب خائف، بل هو ﷺ أمان الخائفين..

فإذا نفخ النافخ في الصور كان المجيب الأول هو ﷺ على عادته عند فزع الناس في المدينة أول العائدين من الفزع يؤمنهم قبل أن تبتدئ فزعتهم وحركتهم نحو الفزع...

فليأت مَن يشاء بعده من أمته.. وكل أمته ملتحقة به ﷺ؛ لن تراعوا، لا تخافوا، لا تيأسوا.. لا تبأسوا.. إليَّ إليَّ.. إليَّ إليَّ على حوضي.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني.



الوجه الأعظم هو مَن يتقدَّم أمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو مَن يشفع لهم عند ربه.. هو مَن يقربهم من ربهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..هو هذا الذي بكى الليالي لأجل أن يأخذ عهدًا عند الله لهم... ليس لصحابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فحسب، وإنما لأمته، فهي الأمة الأكثر والأقرب الناظرة بعد وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وجه ربها تَبَارَكَ وَتَعَالَى... هي الأمة المتصدرة اليوم مشاهد النعيم العظيم كلها... هي أعظم أمة وأولى أمة عند ربها، وأحظى أمة بعهد الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا**»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَوْضِي كَمَا بَيْنَ عَدَنَ وَعَمَّانَ، أَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، أَكْوَابُهُ مِثْلُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ عَلَيْهِ وُرُودًا صَعَالِيكُ الْمُهَاجِرِينَ**»، قَالَ قَائِلٌ: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الشَّعِثَةُ رُؤُوسُهُمْ، الشَّحِبَةُ وُجُوهُهُمْ، الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ، لَا يُفْتَحُ لَهُمُ السُّدَدُ، وَلَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ، الَّذِينَ يُعْطُونَ كُلَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَلَا يَأْخُذُونَ الَّذِي لَهُمْ**»(٢).

ولو كان المقصود المهاجرين من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وحدهم.. لما سأل عنهم الصحابة، ولقال لهم: هم أصحابي المهاجرون، وإنما هي عامة في كل المهاجرين من ديارهم من أمته الذين عانوا ما عانوا في هذه الدنيا..

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّ لِي حَوْضًا مَا بَيْنَ الْكَعْبَةِ، وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ أَبْيَضَ، مِثْلَ اللَّبَنِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

(١) رواه البخاري (٦٥٧٩).
(٢) رواه أحمد (٦١٦٢)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.
(٣) رواه ابن ماجه (٤٣٠١)، وصححه الألباني.

عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا حَوْضُكَ الَّذِي تُحَدِّثُ عَنْهُ؟ فَقَالَ: «**هُوَ كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى بُصْرَى، ثُمَّ يُمِدُّنِي اللهُ فِيهِ بِكُرَاعٍ لَا يَدْرِي بَشَرٌ مِمَّنْ خُلِقَ أَيُّ طَرَفَيْهِ**»، قَالَ: فَكَبَّرَ عُمَرُ رضوان الله عليه، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا الْحَوْضُ فَيَزْدَحِمُ عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَمُوتُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُورِدَنِي اللهُ الْكُرَاعَ فَأَشْرَبَ مِنْهُ**»[1].

أليست هي الأمة التي جعلت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبسم مرارًا كثيرة.. فكيف يصنع الله بأمة أسعدت رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعلته يتبسم إلى آخر حياته إلا أن يعطيها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على قاعدة الجزاء من جنس العمل.. ودونك جزاء الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد أن يعطي ويغدق.. عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن جعله يبتسم.

نعم إذا كان المرء يرضى ويسعد بابتسامة مَن قابله.. فإن الابتسامة الصادقة لا بد أن يتبعها ما يصدقها.. فماذا ترى ابتسامة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أطلق الله عَزَّ وَجَلَّ يده في المحشر حتى قال له في الدنيا: «**إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»[2]، هذا وعد الله في الدنيا والآخرة.. حتى في الدار الآخرة، فقد أعطاه هناك ما يريد وزيادة؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَعْوَةٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، وَقَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. هَلْ تَدْرُونَ بِمَنْ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا**



(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥١٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢).



نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي، ائْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ»[(١)]، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعلمون بهذا جيدًا، فلقد ورد حديث عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ». فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ! قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[(٢)]، وحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: «أَنَا فَاعِلٌ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ؟ قَالَ: «اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ، قَالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ، فَإِنِّي لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنِ»[(٣)].

وابتسامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تكن كما ذكرنا للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خاصة دون غيرهم، وإنما هي كذلك للأمة من بعدهم، ولهذا كانت الأولية لـمَن يخشى من التقصير.. فالإنقاذ أولًا ممن هو على خطر، لأن الخوف عليه أكبر؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شفاعته: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[(٤)]، وحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: «أَنَا فَاعِلٌ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ؟ قَالَ: «اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ»، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ، قَالَ: «فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ، فَإِنِّي لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنِ»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠).
(٢) رواه مسلم (٤٨٩).
(٣) رواه الترمذي (٢٤٣٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
(٤) رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأحمد (١٣٢٢٢)، وصححه الألباني.
(٥) رواه الترمذي (٢٤٣٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.



الخاتمة



وهل نملك إرثًا شرعيًّا نجعله الخاتمة لكتاب [ولادة الابتسامة] إلا الابتسامة الخاتمة؛ حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نفسه، فما هو والله إلا البحر.. لا يزيد مَن يشرب منه إلا عطشًا.

فَعَوْدٌ على بدء.. ولْنقرأه مرة أخرى وأخرى، ولْنتدبره من جديد.. فإنه حقيق بمزيد وفريد من التدبر والتفكر..

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا الْـمُسْلِمُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفُوفٌ، فَتبَسَّمَ يَضْحَكُ، وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ لِيَصِلَ لَهُ الصَّفَّ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخُرُوجَ، وَهَمَّ الْـمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلَاتِهِمْ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ: «**أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ**». فَأَرْخَى السِّتْرَ، وَتُوُفِّيَ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ»(١).

وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد وآله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) رواه البخاري (٧٥٤).



الفهرس









ولادة الإبتسامة